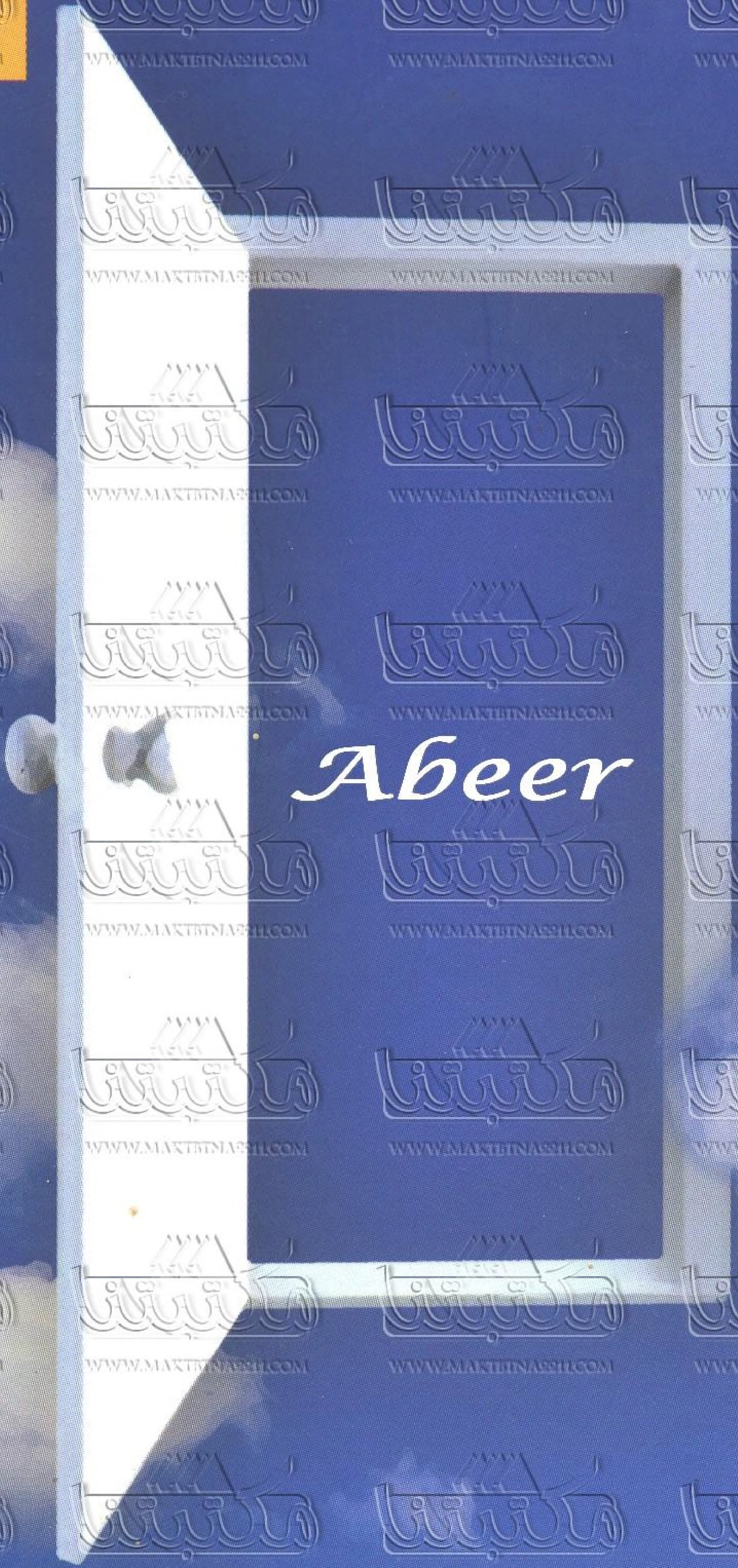
222

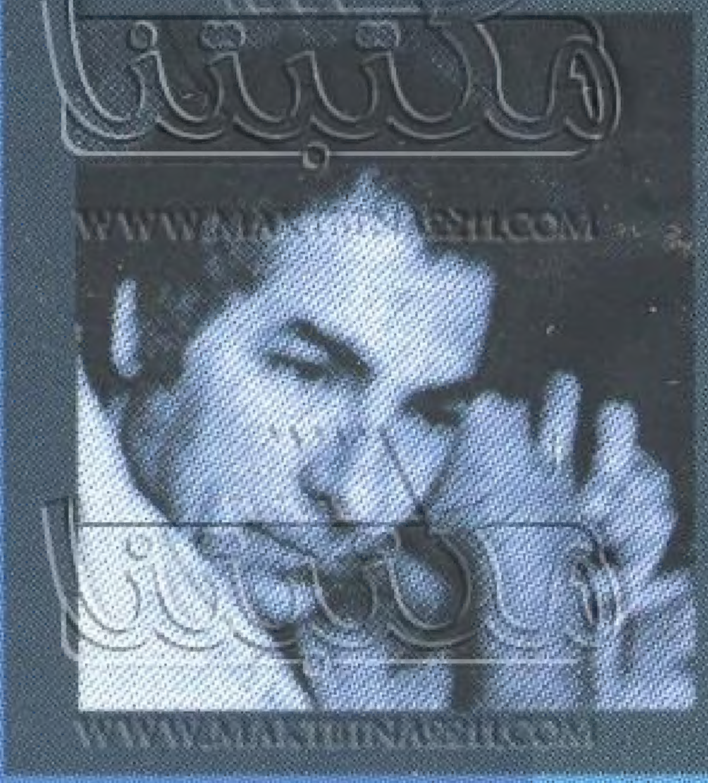
أنيس منصور

الذي خرج ولم يعد



Ahmed Mady

Abeer



الذي خرج ولم يعد

رأى كبير آلهة الإغريق (زيوس) أن الإنسان وحيد؛ فقرر أن تكون له زوجة، وطلب من بقية الآلهة أن يمنحها كل واحد منهم صفة، وهذه الصفة هي الهدية وتم ذلك ثم سألهم: ماذا نسميها؟ فقال أحدهم: نسميها باندورا أي التي عندها كل الصفات، وكانت باندورا هي حواء الأساطير الإغريقية، ورأى كبير الآلهة أن يحبس كل الشرور في صندوق وأن يبعث لها بالصندوق وأوصاها ألا تفتحه ثم حذرها وإلا كان خطرًا عليها وعلى زوجها، وفي يوم سمعت صوت استغاثة داخله ففتحت الصندوق فخرجت أشكال وألوان غريبة من الكائنات تلسعها وتنهشها وتوجعها في كل مكان، وكذلك زوجها. وفي يوم جلست باندورا تتوجع وتنظر إلى الصندوق، فسمعت صوتًا نحيلاً يقول: أنا مختلف، أنا لا أجرح ولا أوجع، أنقذيني لكي أنقذك، ففتحت الصندوق فخرج كائن رقيق جميل يطير ويلمسها بجناحيه في كل مواجعها وإذا بها شفيت تمامًا وكذلك زوجها، أما هذا الكائن الجميل فهو الأمل !

ولكن باندورا في زماننا فتحت الصندوق ولم يخرج الأمل وبقيت الشرور كما هي، فكأن الأمل قد خرج مرة واحدة ... عد!

6 221133 339667

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

دول الأمة الجزيرة والمصرية والأخيرة

حمير بن سعد


كتابنا القادم
الخيانة
مشوار
مُحرِج
لحد الحزن
عمر طاهر
أشعار بالعامية المصرية

أنيس منصور

الذي خرج ولم يعد

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

مصيبة: وجدت اسمي بين عارضات الأزياء!

(لولاه ما أفلحنا في إقامة هذا العرض الفخم الأنيق لأزياء الربيع، لقد أعطانا من وقته وخبرته فشكرًا له)

أما هذا الذي يشكرونه فهو أنا.

ولم أنم الليلة حتى جمعت كل هذه المنشورات التي سيوزعونها على كل اللائي والذين يشاهدون هذا العرض المصري الفرنسي. أما الذي عملته أنا فهو أنني رتبت الصور بصورة منتظمة وتاريخية وكتبت كلمات تحتها، وكتبت مقدمة تاريخية لظهور هذه الأزياء ومقارنة الخطوط الجديدة عند كل دور الأزياء، ثم قدمت اجتهادًا في تفسير الخطوط الجديدة المستوحاة بين الشرق العربي والشرق الهندي والياباني والصيني، وهذا طبيعي، فقد دخلت دور الأزياء اليابانية والهندية بألوانها وعطورها التي لها لون وألوانها التي لها رائحة، فكان هذا الكوكتيل الرائع في زهور الربيع وخطوطه، ثم تحدثت عن السيدة كوكو شانيل ودورها في إطالة ذيل الفستان حتى منتصف الركبة، ولا يزال هذا موقفها الثابت حتى جاء ديور ونزل بالفستان إلى ما دون ذلك بشبرين. وكانت (النيولوك) التي تسلطنت على الموضة في الخمسينات، ثم جاءت من بعدها (الميني) والتي

قدمتها الآنسة ماري كوانت واستحقت نيشانًا من ملكة بريطانيا، فقد تحول ملايين السياح إلى بريطانيا يمتعون عيونهم بالنظر الطويل إلى الفساتين القصيرة، وبعد ذلك إلى بنات باريس.

وتابعت في مقدمة الكتيبات خطوط الذيل مع خط الرقبة ثم خط الوسط، وكلها تتسابق في الارتفاع والهبوط، فإذا هبط خط الرقبة نزل خط الذيل والعكس بالعكس، وأصبحت الموضة كيف تتسابق خطوط الذيل والرقبة في اللقاء عند خط الوسط، أو لا داعي لهما معًا، ولكن أن تكشف الفتاة عن خصرها فتقطع خط الذيل وخط الرقبة.

مع تعبيرات رومانسية نصف عارية وبس، وفوجئت بأن اسمي قد وضعه الأصدقاء والصديقات أصحاب الديفيليه وطار عقلي، فأنا كتبت هذا هدية لهم فقط، ولم أتحرك حتى جمعوا كل هذه المنشورات والكتيبات وأخذتها معي، وعليهم أن يفكروا في تأجيل موعد العرض، وتأجل حتى يتمكنوا من حذف اسمي، وهم حسنو النية، أرادوا تحيتي والامتنان لي، وشكرتهم كثيرًا على حذف كل الامتنان والتحية التي ظهر فيها اسمي كبيرًا كأنني أحد مصممي الأزياء أو إحدى العارضات؟!

كنا هناك عند خلق الكون!

على مهلك وأنت تقرأ؟ كيف خلق الله الكون؟ نحن نريد أن نعرف الآن ماذا حدث بعد ثانية واحدة من الانفجار الكبير، الذي أدى إلى تناثر المادة في الكون واتخذت أشكالها الملتهبة من المجرات والنجوم والكواكب والكويكبات والمذنبات والتراب الكوني والأشعة الكونية.

يعني إيه؟ يعني أن الكون قد نشأ في لحظة ما من 15 ألف مليون سنة، من انفجار ذرة لا متناهية الكثافة، ثم قال الله لها: كوني، فكانت وكنا!

يعني إيه؟ يعني المادة التي في الكون لا تفنى، يعني مادة جسمك هذا عمرها 15 ألف مليون سنة، لأن جسمك مكون من الروبونات والإلكترونات والنيوترونات القديمة، هي هي، وكنا نؤمن بأن الذرة هي أصغر ما في الكون، غلط! لقد أمكن تقسيم الذرة إلى واحد على ألف مليون من المليمتر وبسرعة تصل إلى واحد على ألف مليون من الثانية، هل يمكن أن نتخيل ذلك؟ لا أنت ولا أنا ولا أحد.

يعني إيه؟ يوجد بالقرب من مدينة جنيف بسويسرا وتحت الأرض وطوله 27 كيلومترًا، نفق به أجهزة جبارة تطلق الجزيئات بعضها

على بعض، ويؤدي الإطلاق والانطلاق إلى صدام تتخلق منه الطاقة ثم تتحول إلى مادة، وهذه هي المرة الأولى التي تتحول فيها الطاقة إلى مادة، لأن المألوف والمعروف هو أن تتحول المادة إلى طاقة تنطلق طبقًا لمعادلة أينشتين الشهيرة: الطاقة = الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء.

يعني إيه؟ يعني أن الطاقة التي سوف تنطلق وبسرعة لا يتخيلها العقل، سوف تتحول إلى مادة، وهذه هي المادة الأولى التي خلق الله منها الكون، أي بعد (الانفجار العظيم) بواحد على ألف مليون مليون من الثانية.

يعني إيه؟ يعني إذا حصلت على هذه المادة عرفنا من أي شيء خلق الله الكون وهي نفس المادة التي خلق منها النبات والحيوان والإنسان.

وهذه الأجهزة الجبارة تشارك فيها 19 دولة أوروبية منذ سنة 1952 واسم هذه المؤسسة العلمية (سرن) وهو اختصار للاسم الفرنسي: (المجلس الأوروبي للأبحاث النووية)، وسوف يفتحونها للناس في الشهر القادم، وفي سنة 1998 كانوا قد طلبوا للأطفال أن يتفرجوا عليها وأن يرسم كل طفل صورة للكون وعمره لحظة واحدة – طبعا كلمة لحظة، ليس لها مدلول علمي – وإنما المقصود جزء صغير جدًا جدًا من الثانية أو من الذرة، أي من المكان والزمان.

ويتخيل العلماء كيف كان الكون قبل وبعد الانفجار العظيم، ويرضي غرور العلماء أن يقولوا: كنا هناك! ويريدوننا أن نكون معهم، هناك، أين هناك؟ لايوجد أين ولا متى ولا كيف، وإنما العقل الإنساني يحاول إلى ما لا نهاية!

وما تزال الكهوف تقول!

في جنوب فرنسا اكتشف الأثريون من 70 عامًا كهفًا اسمه (لاسكو). هذا الكهف مثل كهوف كثيرة في العالم بها لوحات تاريخية على الجدران رسمها الإنسان منذ 17 ألف سنة أو أكثر، كهوف لاسكو الفرنسية عمرها حوالي مائتي قرن، وعلى الجدران أبقار وغزلان، بأحجامها الطبيعية، ويوجد ثور بني اللون كبير جدًا، وقد حرص الذي رسمه على أن يتوقف عند كل علامة تميزه.

وفي السنوات الأخيرة لاحظ الأثريون أن الفطريات بدأت تظهر على الجدران وتمحو اللون الطبيعي الذي ظل ممسكًا بالأحجار كل هذه الفترة الطويلة، وكان العلماء قد استخدموا أجهزة التكييف تحت الأقدام حتى لا تذوب الألوان أو تنهار الأحجار، ولابد من استخدام وسائل كيميائية لتثبيت اللون والأحجار التي تحته أيضًا.

فما الذي يريد أن يقوله البشر، ما رسالتهم لنا؟ إنهم كانوا يعيشون في أرض زراعية وغابات وأن حيواناتهم التي استأنسوها وأكلوها كانت من الأبقار والغزلان وأنهم أيضًا قادرون على الرسم، وقد سارعت الكاميرات إلى التصوير والمعامل إلى التحليل، تحليل اللون والتربة واستخدام الكربون في معرفة العمر الذري لهذه الكهوف.

وهذه الكهوف النادرة تشبه الكهوف الصخرية في ليبيا، ففي ليبيا توجد كهوف (تسيلي) في المنطقة الصحراوية المعروفة باسم منطقة جبارين، وقد رأى علماء الآثار والخيال العلمي أيضًا، صورًا للأبقار والثيران والغزلان أيضًا. وعلماء الخيال العلمي مثل العالم السويسري (فون دنكن) وجدوا أن هناك لوحات لأناس يضعون الخوذ على رءوسهم وأمامهم لوحات إلكترونية ولا يستبعد أن يكونوا كائنات من كواكب أخرى هبطت إلى الأرض، وغادرتها لأسباب ليست معروفة لدينا وقد تركوا لنا هذه الرسالة.

ربما كانت كهوف (ضربة قيران) في شمال البحر الميت والتي عثروا عليها سنة 1947 هي الأوضح والأحسن حالا، ففي كهوف (ضربة قيران) وجدوا لفائف البحر الميت الشهيرة التي تحدثت عن مائة سنة قبل ظهور المسيحية وكيف كان اليهود يعيشون، وكانت من بينهم جماعة اسمها (الأطهار) وكيف كانت هذه المجموعة التي تردد عليها السيد المسيح هي أول مستوطنة شيوعية في التاريخ، الكل يملك كل شيء ولا أحد ينفرد بشيء!

وفي أغانينا أن (الأرض بتتكلم عربي)، ولا تزال الأرض تكشف عن أسرارها بلغات شتى، وآخر ما خرج من الأرض المصرية هو إنجيل يهوذا الإسخربوطي الرجل الذي خان السيد المسيح وباعه للرومان، ولكن هذا الإنجيل يبرئ يهوذا من الخيانة وينقله من غياهب الخيانة إلى نور المحبة والوفاء للسيد المسيح.

يا أي طفل ويا أي شيخ تعال وتعلم!

الله الله، كأنني سمعت لحنًا جميلاً أو موسيقى بديعة أو شممت عطرًا منعشًا أو رأيت سمكة «بالمايونيز والأناناس» أو نهضت من نوم طويل، والطويل عندي هو أن يبلغ أربع ساعات مرة واحدة!

والحقيقة شيء آخر غير ذلك، فقد وجدت على المواقع الإلكترونية للمؤسسات العلمية مثل هذه العبارات: ماذا يقال للأطفال، وماذا يقال للطلبة، وماذا يقال للمدرسين، وماذا يقال للعلماء المتخصصين، أي أن هناك مواقع لكل هؤلاء.

قرأت ماذا قالوا للأطفال عن المنظومة الشمسية، ثم كيف قالوا هذه المعلومات للطلبة الأكبر سنًّا، ثم للمدرسين الذين درسوا وعرفوا أكثر، ثم ماذا قالوا للعلماء، **الله الله**، فلا أجمل ولا أروع من ذلك حرصًا على أن تكون العلوم والنظريات والتطبيقات مفهومة عند كل الناس، عند أقلهم علمًا وعند أكثرهم تخصصًا، **الله الله**، فلا توجد صعوبة على الإطلاق، فالكل يجب أن يعرفوا، فكما أن الهواء والشمس مجانيان، فكذلك المعلومات فهي متداولة لكل من يريد أن يعرف، ويجب أن يعرف، وواجب المؤسسات أن تنشر المعرفة، فهم يقدمون اللبن مثلاً للطفل الرضيع وبعد مدة في الشاي للأكبر ويقدمونه

مطبوخًا ويقدمونه آيس كريم ويقدمونه أقراصًا، المهم أن يتناوله كل الناس، أي أن الهيئات العلمية يجب أن تنزل إلى متناول كل الناس، والطفل والشاب والأستاذ والعالم، كلهم يجب أن يعرفوا بقدر استطاعتهم: **الله. الله.**

ثم هذه البرامج: أنت مدعو لأن تذهب معنا على أبعد كواكب المنظومة الشمسية إلى نبتون وأورانوس، وهناك شك كبير في أنهما من الكواكب، وأغلب الظن أنهما نجمان أو كويكبان، إنها رحلة بين الكواكب، وفي هذه الرحلة تسجيلات على الشاشة تتحدث إليك وتصف لك أين أنت وماذا كان يحدث لو لم تكن في السفينة، وفي السفينة نفس الشاشة للأطفال والكبار والأساتذة، كلهم يرون شيئًا واحدًا، ولكن المعلومات تقال على مستوى المشاهدين، **الله الله!**

والمعنى أنه لا يوجد سبب يمنعك من أن تعرف كل ما حولك، فهناك أناس تخصصوا في فن القول لكل سن، وبمنتهى الصراحة لقد وجدت بعض الصعوبة في فهم ما يقال للطلبة، طبعًا لا أستطيع أن أستوعب المعادلات الرياضية التي تقال للأساتذة وللمتخصصين، ولذلك فإنني أتجه مباشرة إلى الذي يقال لأمثالي من الهواة الذين لا يطيقون ألا يعرفوا، **الله.** **الله**، وشكرًا جزيلاً!

المرأة: تتجمل وتتعرض وتنتظر!

الأزياء هي تطوير في ورقة التوت، مرة تجعلها صغيرة ومرة كبيرة ومرة شفافة ومرة داكنة، وتتسع ورقة التوت فتغطي الجسم كله أو تعريه، والأزياء ليست للوقاية من الحر والبرد، وإنما لكشف مفاتن المرأة لأنها تريد أن تستعرض ولأن الرجل يريد أن يرى.

قال أستاذنا العقاد إن حياة المرأة تتلخص في هذه العبارة القصيرة: إنها تتجمل وتتعرض وتنتظر!

والموضة هي وسط بين الاحتشام والتعري، وشيء غريب أن نجد في التوراة أن الرب عند اليهود يلعن المرأة المتبرجة ويتوعدها بأن يجعلها صلعاء وأن يحطم غرورها من كل ما لديها إذا أصرت على الخيلاء ولفت الأنظار والتحريض على الرذيلة.

وقد جاء في سفر إشعياء (الإصحاح الثالث) أن الرب قد كره بنات صهيون لأنهن يتبخترن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات في مشيهن ويشخشخن بأرجلهن ويعاقبهن الرب ويعري عورتهن وينزع الخلاخل والضفائر والحلق والأساور والبراقع والخواتم والثياب المزخرفة والقمصان وبدلاً من الروائح العطرية

تكون العفونة. وفي سفر صفنيا (الإصحاح الأول) يقول: وسوف أعاقب الرؤساء وجميع الذين يرتدون ملابس غريبة!

ولا شيء يدل على قلق المرأة وعدم شعورها بالأمان إلا هذه الأزياء، الموضة التي تتغير من حين إلى آخر والمرأة تسايرها وتحرص عليها، فهي تحرص على التغير وتحرص على القلق، ومصممو الأزياء يعرفون جيدًا ماذا تريد المرأة وما الذي يريحها، تريد أن تتغير، ويريحها أن تكون قلقة على الفستان واللون والعطر وإثارة الرجل هي التي اختارت أن تكون (شيئًا) مثيرًا ويمتعها أن ينظر إليها الرجل على أنه (شيء) يلعب بانتباه الرجل، وهنا يختلف الرجل عن المرأة: فالرجل ينظر إلى كل ما لا يغطيه الفستان، والمرأة تنظر إلى كل ما يغطي الرجل.

والأزياء يصممها رجال فيهم أنوثة، أي أقرب إلى المرأة وأسرع إلى فهمها، وهم وهن بلا منطق، ففي الأزمات بعد الحرب العالمية الثانية ظهر الفستان الطويل تحت الركبة، وفي الازدهار الصناعي والتجاري ظهر الميني جيب والميكرو، وإذا طال الفستان تعرى الظهر، وإذا قصرت الأكمام هبط الذيل، وإذا ارتفع الذيل نزلت الأكمام، وهبط خط الرقبة، وهبط خط الخصر، والخطوط طالعة نازلة، صوفًا وحريرًا وخيوطًا صناعية، وإذا قال أشباه الرجال مصممو الأزياء: يمينًا، اتجهت المرأة بفلوس زوجها يمينًا، وإذا قال يسارًا سبقته إلى هناك!

وكما أن المرأة بعد أن خرجت إلى العمل لن تعود إلى البيت، فكذلك سوف ترتدي المرأة ورقة التوت، أو ألف ورقة توت حلال؟ حرام؟ إن هناك عقدًا سريًا بين الرجل والمرأة: هي تتعرى وهي وهو سعيدان بذلك!

شعراء مقاتلون لا قاتلون!

يقول أحد مساعدي الجنرال ويفل قائد القوات البريطانية في معركة العلمين، إنه طلب منه المسدس الخاص به وهو من طراز براوننج، فظل يبحث عنه في كل مكان فلم يجده، واندهش فما حاجة الجنرال إلى هذا المسدس؟ من المؤكد أنه لن ينتحر وقد كسب معارك تاريخية فاصلة في الصحراء المصرية.

وفوجئ مساعد الجنرال بأنه لايريد المسدس وإنما هو يريد ديوان الشاعر براوننج؟!

ومن الغريب أن المارشال روميل كان يطلب من مساعده الجنرال أشتومه أن يقرأ له قصائد للشاعر الألماني جيته، وكانت المدافع تدوي والقنابل والعواصف، وروميل يناقش المعاني الجميلة للشاعر العظيم!

وكان نابليون أيضًا وفي قلب المعركة ينام على حصانه ويملي أكثر من خطاب في وقت واحد، وأحيانًا يسأل عن معاونيه لعل أحدًا منهم يقرأ له شعرًا لاتينيًا قديمًا، وأحيانًا يطلب إليه أن يغني إن كان صوته جميلاً، والحرب مستعرة والنار تأكل نفسها وغيرها!

قال تشرشل في تعليقه على انتصار روميل على الجنرال ويفل: إن روميل نزع تاج الغار من رأس ويفل وألقى به في الرمال وطلب من الذين حوله أن ينظموا أغنية عن ذلك!

وهناك عبارة شهيرة للزعيم الصيني ماو تسي تونج: لا ثورة بغير شعر! أي لابد من الخيال ومن الفن الجميل لرسم صورة للمستقبل، الصورة سوف تصبح دموية بعد ذلك، ولكن يجب أن تكون الصورة جميلة أولاً، وأن يكون الثائر شاعرًا فنانًا، والباقي سهل!

والإمبراطور الطاغية كاليجولا كان يتذوق الشعر، وكذلك الطاغية نيرون كان ينظم الشعر وكان يغني ، وما قيل عن أنه أحرق روما وراح يغني صحيح، فقد أعجبه منظر النيران ودخانها وألوانها المتداخلة وكان يقول: لا يقدر على ذلك إلا فنان عظيم مثلي!

وفي التاريخ عرفنا رب السيف والقلم: شعراء مقاتلون، شعراء حاربوا ولم يسكتوا عن الظلم، وهم كثيرون في كل لغة.

وكان الأستاذ العقاد يحكي عن طفولته في أسوان، وكيف كانت تقوم المعارك بين الطلبة الصغار وكيف أنهم كانوا يتبارزون بالشعر وفي أيديهم سيوف خشبية، وكان العقاد يقول: من السهل أن يكون الشاعر مقاتلا، وليس من السهل أن يكون المقاتل شاعرا، لأن الشاعر لديه إحساس بالحياة والجمال والحب والسلام، وكان يضرب مثلاً لذلك، المتنبي وسامي البارودي وهواة القتال من مثل نيرون وسانت أكزبيري ومالرو. والشعر هو الذي جعلهم مقاتلين لا قاتلين!

ويوم 4 يونيو سنة 1967 كنت في جبهة القتال مع الفريق مرتجي قائد القوات المصرية عندما جاءه كتاب من الماريشال مونتجمري ومعه كلمة إهداء رقيقة يقول فيها: أرجو أن تجد وقتًا لتقرأ هذه الملحمة وسوف تعجبك! وكتاب آخر «مختارات من الشعر الإنجليزي» إنها هدية جاءت قبل اشتعال حرب 1967 بيوم واحد ولم يخطر على بال الماريشال مونتجمري أن الحرب تمنع أحدًا من قراءة الشعر أو الاستمتاع به!

لأنها قنابل ذرية إسلامية فهي خطرة!

كوكب الأرض في خطر، بسبب الإشعاع النووي أو انفلات الإشعاع النووي، كما حدث في شرنوبل بأوكرانيا، ولكن خطر الإشعاع يزداد لأنه أصبح في أيد غير أمينة، وهذه الأيدي هي علماء وساسة إيران! عجبي.

مع أن القنابل والمفاعلات النووية موجودة في أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وفي الهند وباكستان وكوريا الشمالية وإسرائيل، أي أن هذا الخطر قديم، ولكن كل شعوب الأرض من العقلاء أصحاب القلوب الرحيمة، إلا إيران! ومنذ أعلنت إيران أن لديها طاقة نووية عاقلة وطاقات ذرية نظيفة وأن الطريق إلى صنع القنبلة طويل يحتاج إلى عشرين عامًا تزيد أو تقل، وما يهمسون به في إيران يدوي في أمريكا وإسرائيل.

صحيح أن هناك دولاً تستخرج الطاقة الكهربية من الهواء مثل الدانمارك وهولندا وأيرلندا، ولكن هذه الطاقة متواضعة، ضرورية للإضاءة ولكنها لا تحرك المصانع ولا تدير المستشفيات، وليس من المعقول أن تذهب إلى طبيب جراح وتطلب إليه أن يؤجل العمليات لأن الكهرباء التي تستخرجها طواحين الهواء ليست كافية، لأن الرياح ضعيفة!

وفي نفس الوقت هناك ملياران من البشر يعيشون في الظلام، بينما دولتان كبريان مثل الصين والهند تحتاجان إلى طاقة نووية هائلة للإنارة والإدارة، وسوف تعتمدان على الطاقة النووية، فلا مانع عند أمريكا من أن تكون للصين والهند طاقة نووية، ولكن المانع كله أن يكون لدى كوريا الشمالية وإيران، أما إسرائيل فعلى كيفها: طاقة نووية أو أية طاقة من أي نوع، لأن إسرائيل جزيرة في محيط من الكراهية، والعجيب أن كل الذين حول إسرائيل لا يملكون طاقة نووية، لا عندهم ولا في نيتهم، وإذا كان ولابد فسوف تكون لهم طاقة ذليلة ذلول فلا خوف على إسرائيل ولا هم يحزنون، إلا إيران الإسلامية!

مع أننا عندما نتكلم عن القنابل الذرية في أمريكا وروسيا وكوريا وإسرائيل لا نقول القنابل المسيحية أو القنابل العلمانية أو القنابل اليهودية أو البوذية أو الشيوعية، إنها قنابل و«بس» وهي أسلحة فتاكة واحتياطي استراتيجي إذا ما وقع عدوان، أما في حالة إيران فهو الإسلام قد استخدم القنبلة الذرية في اليد اليمنى والإرهاب في اليد اليسرى!

إن قنابل إيران خطرة على المسلمين أيضًا، ولكنها ليست الخطر الوحيد علينا في الشرق الأوسط!

ملايين الدولارات كسبها المؤلف والمنتج!

لم يعجبني فيلم «شفرة دافنشي»، أما الإخراج فشيء رهيب وعظيم وكذلك الصوت والصورة، ويبدأ الفيلم كأنه لجيمس بوند وأنها إحدى العصابات تستخدم الأجهزة الحديثة في القتل وتمضي الدقائق طويلة مملة أيضًا، وأنت لا تعرف إيه الحكاية، وربما عند منتصف الفيلم تسمع من يقول لك: إن المسيح عليه السلام قد تزوج مريم المجدلية، والتي عندما رآها الناس تمشي مع المسيح تضايقوا وسخروا منها، فقال المسيح عليه السلام كلمته الشهيرة: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر. فلم يرمها أحد! ومؤلف قصة الفيلم رأى لوحة الفنان العظيم دافنشي للعشاء الأخير مع المسيح عليه السلام واكتشف أن أحد الحواريين ليس رجلاً وإنما فتاة، وهذه هي مريم المجدلية وهي وحدها التي رأت السيد المسيح يصعد من قبره إلى السماء، ويرى المؤلف أن دافنشي كان يعلم هذه القصة التي تسترت عليها الكنيسة مئات السنين، واغتالت كل من يشير إليها من بعيد أو قريب، وكلها أفكار سبقه إليها مؤلفون آخرون. ويذهب المؤلف إلى أن المسيح عليه السلام قد أنجب من مريم المجدلية فتاة، هذه الفتاة أخذتها أمها إلى فرنسا وتركتها هناك فكان لها أولاد

وبنات وأن الكنيسة تطارد أحفاد المسيح وتقتلهم واحدًا وواحدة. والفيلم يغضب المسيحيين والمسلمين، فلماذا ذهبت؟ لأعرف كيف اهتدى المؤلف إلى هذه الحقيقة الغائبة ألفي سنة!!، إنه حب الاستطلاع وليست الحقيقة التي غابت عن كل الناس وظهرت للمؤلف دون سواه، و«بس»!

ولا أنسى يوم ذهبت أتفرج على فيلم «بن هور» في سينما «المصري» في مدينة هوليود سنة 1959، والفيلم من تأليف الجنرال وليامسون وقد ظهر في كتاب ثم ظهر على المسرح، والفيلم بطولة شارلتون هستون الذي رأيته في القاهرة قام يمثل «الوصايا العشر» أما بن هور فهو أحد اليهود؛ عايش المسيح عليه السلام، ورآه يمشي في طريق الآلام حاملاً صليبه متجهًا إلى جبل الجلجثة.

أما هدف الفيلم فهو أن اليهود لا دخل لهم في صلب المسيح ولذلك نرى الأمير بن هور وقد تضايق من تعذيب المسيح، وعندما يمر المسيح أمامه حاملاً صليبه كان بن هور يكاد يخرج عن الصف، يريد أن يحمل عنه الصليب أو كأنه، وهذه اللحظة تكلفت عشرات الملايين فمن أجلها كان هذا الفيلم. وبعد أربع سنوات ذهبت في ملابس الكهنة السوداء لأشهد «المجمع المسكوني» في الفاتيكان، وفي هذا المجمع تقدم الكاردينال الألماني بيا بوثيقة العفو عن اليهود وتبرئتهم من دم المسيح، فكان لليهود ما أرادوا، وتوقفت اللعنات على اليهود في صلوات الكاثوليك، وكذلك استحق البابا يوحنا الثالث والعشرون أن يكون قديسًا، فكان!

وفي اللحظات الأولى من فيلم «بن هور» نجد أسد شركة مترو لا يحرك رأسه يمينًا أو شمالاً، واندهش الناس، وتساءلت فقيل لي: مثل هذه الأحداث يجب أن تتجمد لها دماء الأسد!

أما فيلم «شفرة دافنشي» فالدماء تغلي وتطالب بصلب المؤلف الأمريكي لهذا الفيلم الذي لم يرح من قرأه ومن شاهده، ولكن المؤلف والمنتج كسبا مئات الملايين، وهذا هو الأهم!

وصل الرواد سالمين.. شكرًا!

عندما سئل الأستاذ توفيق الحكيم عن الفرق بين جيله وجيل ابنه إسماعيل قال: على أيامنا إذا سألونا: ما الذي يعبر البحر دون أن يبتل، كنا نقول: العجل في بطن أمه، ولكن إسماعيل يقول: الطائرة!

ونحن أطفال في الريف كنا نلعب لعبة الدكتور، وذلك بأن ينام أحد الأطفال كما يفعل المرضى ويجيء الدكتور ويشكه أو يلسعه بشيء ما، أو إذا كان المريض يشكو من عينيه فإنه يضع بعض التراب في عينيه، تصور هذه الألعاب الخشنة، ولكننا في الريف لا نعرف ما الذي يتسلى به أطفال المدينة، فلا كانت عندنا ملاعب ولا حدائق ولا دور للسينما نرى من خلالها الدنيا وكيف يلعب أبناء أوروبا وأمريكا! ولكن ما الذي يلعبه أطفال اليوم؟

أما الألعاب التقليدية فكلنا نعرفها، مضافة إليها الألعاب في الهاتف المحمول أو على شبكة الإنترنت، وأنا لم أجرب شيئًا من ذلك، فلا عندي وقت ولا عندي رغبة. ولكن وجدت أخيرًا ألعابًا رفيعة المستوى، ألعابًا في الفضاء وبين الكواكب والمجرات والثقوب السوداء والمذنبات؟ وأين؟ على شبكة هيئة الفضاء الأمريكية والأوروبية أيضًا. مثلاً هناك لعبة الطبيب، اللعبة تقول لك: هل تريد

أن تلعب دور طبيب؟ وعليك أن ترد. فتقول: نعم، ويقولون لك: إذن نعرض عليك مهمتك العاجلة وهي أن تكون الطبيب المرافق لطاقم من رواد الفضاء في رحلة إلى كوكب الزهرة أو المريخ، وقبل أن تبدأ الرحلة يعرفونك بهذا الكوكب: بدرجة الحرارة والجاذبية ثم يقدمون لك رواد الفضاء ومهام هؤلاء الرواد، ويحددون مهمتك بأنها أن يصل هؤلاء الرواد في تمام الصحة والعافية، هل أنت مستعد؟ ويكون الجواب: نعم. ويسألون هل إذا صعب عليك الأمر هل تتصرف وحدك أو تلجأ إلى محطات المتابعة الأرضية، وتختار أنت.

فجأة ترتفع درجة حرارة أحد الرواد، ويعلو ضغط رائد آخر، ولا يجد الرائد الثالث رغبة في الطعام، ويجد الثلاثة صعوبة في النوم طبقًا للتعليمات، فماذا يفعل؟ فقد تعتمد على معلوماتك وتكون النتيجة غير ما تتوقع، ومرة تسأل محطات المتابعة الأرضية وتجد حلاً لكل المشاكل وفجأة تظهر مشكلة ليس لها حل عندك وتحتاج إلى وقت لتجد طبيبًا في أمريكا أو في أوروبا، فتجد نفسك مضطرًا إلى أن تعود إلى بداية الرحلة.

وفجأة يظهر تحذير يقول لك إنه مستحيل أن تنخفض درجة حرارة رائد الفضاء ثم ترتفع فجأة هكذا، نحن نداعبك، ونعتمد على ذكائك، وشكرًا لقد وصل الرواد سالمين!

الوهم: أخطر أمراض المثقفين!

لابد أن يكون لي أصدقاء من الأطباء من معظم التخصصات، فأنا موسوس، أتوهم الإصابة بأي مرض من مجرد رؤية مريض أو الجلوس معه، وخصوصًا إذا كان مزكومًا، وكان بعض الناس يتصور أنني أبالغ أو أتوهم أو أتصنع ذلك، ولكن يكفي أن يعطس أحد وفي لحظة أكون قد عطست، فعندما قيل لي إن الرئيس نميري مزكوم وأنه لا داعي للأحضان والقبلات، فلم أكد أقترب منه حتى عطست مع أنه لم يكن مزكومًا، وإنما كانت مداعبة من الرئيس السادات لتكون المفاجأة المضحكة، ومرة أخرى عندما كان لابد أن أقابل مناحم بيجين برسالة من الرئيس السادات وفوجئت به يعطس فعطست، ولم يكن مزكومًا وإنما هي مداعبة خشنة! وكان أصدقائي الأطباء - ولايزالون - يتوقعون أن أصاب بأعراض أي مرض، فإذا طلبت واحدًا منهم ودون أن يسألني عن صحتي أو عن أي شيء آخر فإنه يقول: لا داعي للشرح، تعال أنا في انتظارك!

وكان يطاوعنا في هذه الأوهام أكبر أطباء الأمراض الباطنية الدكتور أنور المفتي، وكان أكثر الناس ترددًا عليه كاتبنا الساحر محمود السعدني وأنا، وقبل أن نذهب إليه يدور حوار بيننا ليعرف كل

منـا ما الذي يشكو منـه، وكـانت شكوانـا واحدة: المصران الغليظ العصبي، أو مـرض المـثقفين أو مرض البـيروقراطيـة، أي الذين يجلسون مشدودين إلى مكاتبهم، تمامًا كما يفعل أستاذنا عباس العقاد، فهو إذا جلس وضع يده على بطنه، على مصرانه، وإذا ضحك وضع يده على مصرانه وإذا قام وإذا جلس. وكان الدكتور أنور المفتي يؤكد لنا- ولا نصدقه - أننا مصابون بوهم مرضي، وأنه لا صحة لأوهامنا هذه، وقرر في يوم من الأيام أن يؤكد لنا صحة رأيه، ذهبنا إليه، طلب مني أن أتمدد على السرير، وأنه سوف يضع يده ويضغط برفق على بطني، وقال: إذا أوجعتك فقل لي، وقلت له: آه.. وطلب مني أن أنظر ورائي، لقد كان الطبيب بعيدًا، وهو لم يلمسني، وتكرر نفس الشيء مع محمود السعدني!

ثم قرر أن يكتب «روشتة» وكانت طويلة جدًّا، وطلب منا أن نتناولها بمنتهى الدقة وفي ساعة محددة وأن نجيء إليه بعد ثلاثة أيام، وجئنا في غاية السعادة والراحة والنوم الهادئ، وكان رد فعل د. المفتي أن ضحك وأضحك علينا مصر كلها، فقد روى ما حدث، أما العقاقير التي كتبها وأوصى بتناولها فهي: فحم+ عسل نحل+ حبوب ملينة، ولها أسماء مختلفة لا أكثر ولا أقل، وهي ليست عقاقير طبية وإنما هي نباتية ولسنا في حاجة إلى طبيب. توفي الدكتور أنور المفتي، وبقي أطباء آخرون يكتبون نفس الروشتات ولنفس الوهم!

جسمها يتكلم ولكنها لا تنطق!

عندما جاء الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا إلى مصر كانت ترافقه زوجته الأديبة السه مورانته، جلست إليه وبسرعة أشار إلى سيدة لفت شعرها بمنديل ريفي، ولم تكن جميلة، ممكن أن أقول دمية، وعصبية جدًّا، قدمها لي، وأكملت هي التعريف بنفسها وبأعمالها الأدبية، ثم تركتنا وجلست في مكان آخر من بهو فندق سميراميس القديم.

وفي هافانا عاصمة كوبا قابلته مع زوجته الثانية الأديبة داتشيا ماريانى، حلوة، ويبدو أنها من أصل روسي أو أوكراني، فحدثتها أنا عن روايتها البديعة التي عنوانها «زمن الوسوسة» وأسعدها ذلك.

ثم لقيته للمرة الثالثة ومعه زوجته الإسبانية كولسويلا، أي سلوى، وضحك مورافيا وشكرني على مقالات كتبتها عنه، فأنا الذي قدمته إلى اللغة العربية، ولم يكن أحد يعرفه قبل أن أترجم له أكثر من مائة قصة قصيرة ورواية «فتاة من روما» و«المراهقان» و «الحب الزوجي» و «زمن اللامبالاة» وهي أروع وأعمق ما كتب.

وفي إحدى المرات في برلين وجدته جالسًا وحده، فقلت مداعبًا: أين الزوجة الرابعة؟ فقال: أريد ذلك، قلت: وما يمنعك؟ قال: إن زوجتي الثالثة في صحة جيدة، ويبدو أنها سوف تموت بعدي مع رجل آخر. وقال: أريد أن أتزوج راقصة، فكل زوجاتي كانت صناعتهن الكلام، تعيش بالكلام وعلى الكلام وتموت بالكلام أيضًا، وحتى لو كانت تعرف الموسيقى أو الرسم، فلا خلاف بين هذه الفنون، وأنا أريد واحدة تعبر بجسدها، بذراعيها، بساقيها، أريدها راقصة شرقية، إحدى راقصات الصالون الأدبي لهارون الرشيد، أو أريدها ألا تتكلم وتترك لي أن أكلمها عن نفسها، عن جمالها الذي أراه ودلالها الذي أتمناه، فإذا مت وكان لابد أن أكتب نعيًا لقلت عاش أديبًا وسط أناس ليسوا أدباء، وكان يتمنى لو عاش بين الراقصات والمطربين والمطربات وكان ليله موصولا بنهاره، ولا يفيق من الخمر إلا إذا ألقى بنفسه في نهر دجلة.

وفي يوم زرته في بيته في روما ومعي صديقة، فلم يكد يراها حتى قال: راقصة باليه؟ قلت: نعم. فهز رأسه قائلاً: لا أحب الرقص الهندسي، لا أحب الرقص بلا جسد، أريدها شرقية، كلها لحم وشحم، تقول كثيرًا بدون كلام! فقد مللت الكلام.

وبعد وفاته عرفت أن زوجته الثالثة كانت راقصة في أحد كباريهات الأرجنتين!

كنت أقاوم الملل عندنا جميعًا!

عندما كنت عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين وطالبًا في الجامعة، كانوا يكلفونني بإلقاء خطبة الجمعة وإمامة المصلين في مسجد يتحدد كل أسبوع، وقد اهتديت إلى حل مريح وهو أن أعد خطبة واحدة لا أغيرها: بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية عن الصدق والأمانة وكفى، وكان أمرًا سهلاً جدًا أن أتلقى أمرًا بالذهاب إلى المساجد القريبة من القاهرة، وفي يوم فوجئت بأحد الزملاء في جمعية الإخوان المسلمين بمدينة إمبابة يقول لي إنه يتابعني أينما ذهبت، قالها سعيدًا، وأتعسني ذلك، فهو إذن يستمع إلى خطبة واحدة، وشعرت بالكسوف، فهذا الأخ لابد أنه قد زهق أو عرف الملل، وأن حماسي في إلقاء الخطبة مفتعل، ولابد أنه اندهش كيف أردد كلامًا واحدًا بحماس متجدد، ولم أستطع أن أقول له: يا أخي بلاش.. ولماذا تضايق نفسك بالسماع إلى خطبة واحدة لا تتغير؟

ولكنه قال لي ما أراحني، وهو أنه يعمل طول الليل في دكان والده، وأنه لايكاد يدخل المسجد ويشعر بالناس حوله حتى يسند ظهره إلى الحائط وينام طوال الخطبة، فإذا قام الناس للصلاة ذهب وتوضأ، أي أنه لم يستمع لي ولا مرة واحدة!

وعندما كنت مدرسًا للفلسفة في الجامعة كنت أغير الموضوعات التي أدرسها للطلبة كل سنة، فقد أعطاني أستاذي عبد الرحمن بدوي هذه الحرية هربًا من الملل، وحتى لا أكون معديًا فأنقل للطلبة الملل والزهق والقرف من تكرار الموضوع سنة وراء سنة!

وأذكر أنه في إحدى السنوات ضقت بما أقوله، فقد كان كلامًا مكررًا في تاريخ الحضارة الإنسانية، قلت وقرفت، ولم أعد أجد جديدًا أقوله، فما كان مني إلا أن حاضرت في موضوع فلسفي غير مقرر على الطلبة، وحتى لا أزهق الطلبة قلت لهم: بمنتهى الأمانة، هذا الموضوع ليس مقررًا عليكم، ولن أسأل أحدًا فيه، ولا يضايقني إذا غاب الطلبة عن سماع المحاضرات. ومن الغريب أن جاء طلبة من أقسام أخرى لسماع هذه المحاضرات التي ليست مقررة، فكان يجيء طلبة من أقسام الاجتماع واللغة العربية والإنجليزية والفرنسية.

ولما أحسست أنني زهقت أنهيت العام الدراسي قبل موعده، فلم يكن الطلبة هم الذين زهقوا وإنما أنا: من الموضوع ومن الطلبة ومن نفسي!

يا أولاد الحلال: هاتف هذا الرجل!

قالوا لي: طبيبك موجود في لندن، إنه الطبيب المصري جابي جبران بمستشفى الأميرة جريس «برنسيس جريس» واتصلت به، فقال لي: قبل أن تجيء إلى لندن أريد صورة بانورامية للأسنان، وبعد ذلك سوف تدخل المستشفى لمدة ثلاثة أيام وتحت اسم مستعار لأسباب أمنية، وفي اليوم الأول سوف تجيء الممرضة تتحدث إليك وتعرف إن كان لمرض أسنانك تاريخ، ثم تقيس الضغط، وتعطيك مهدئًا، ثم منومًا، وسوف تجري العملية لك وأنت نائم تمامًا، وبعد ذلك لن تشعر بأي ألم، لأن الألم لا ضرورة له. وقد حدث كل ذلك بمنتهى الدقة. وخرجت من المستشفى لأعود إليه في عيادته الخاصة، وبعد ثلاثة أيام أخرى أُجري كشفٌ من جديد، على أن أعود لآخر مرة في العام التالي للاطمئنان على أن العملية التي أجريت تحت الأسنان سليمة وأن مكان عشرين غرزة آمن تمامًا!

سألت الطبيب المصري ما شكل البقشيش الذي ينبغي دفعه للممرضات، فاستاء تمامًا وقال: علبة شيكولاتة ولا تزيد، وسألت بعض المصريين في لندن فقالوا كلامًا مشابهًا، وحددوا نوع الشيكولاتة، أما الذي أعجبني في المستشفى فهو الضبط والربط

وسرعة الأداء والابتسام على وجه الممرضات في كل ساعات الليل والنهار. وبسبب النظر طويلاً إلى التلفزيون في ليالي الوحدة الطويلة أوجعتني إحدى عيني، وبسرعة جاء طبيب، وفي لحظات جاءت زجاجتان من القطرة؛ واحدة للعين اليمنى وواحدة للعين اليسرى، لماذا؟ لا سؤال ولا جواب فالطبيب يعرف أكثر.

قلت للممرضة: هل أستطيع أن أستعير كتابًا من المكتبة، فأجابت: نعم، وأخرجت ورقًا وقلمًا، ولم أكن أعرف أن في غرفتي كمبيوتر، وعلى الكمبيوتر ظهر الكتاب، وبعد لحظات جاء الكتاب، وكانت الحروف صغيرة جدًا، فلم أستطع أن أقرأ بوضوح، وسألت إن كان من الممكن أن أطلب ما هو أكبر حروفًا، وجاء كتاب، من بعده كتاب. وألقيت محاضرة في «كلية التمريض» جامعة المنصورة، وكانت المقارنة هامة جدًا بين علم التمريض عندنا وبين التمريض عندهم، ووجدت أن المسافة كبيرة، ومشكلة مستشفيات مصر كلها ليست الأطباء وإنما الممرضات، أي تطبيق ما يأمر به الطبيب وموالاة ذلك والعناية الشخصية بالمريض.

عزيزي القارئ هذه مقالة مغرضة، أي لها هدف آخر غير أن أحكي حكاية وأروي رواية وأن أقارن وأن يكون عندي أمل في الإصلاح، وهو أنني في الأيام الأخيرة بدأت أشعر بشيء من الألم في أسناني وشفتي، فإن كان ذلك هو نفس الألم القديم، فكل ما أرجوه منك إن كنت تعرف رقم هاتف د. جابي جبران فبالله عليك أن ترسله لي، ولك الأجر والثواب عند الله، فلا أوجع الله لك ضرسًا ولا ألهب لك شفة ولا أرقد لك جسدًا في مستشفى أو في أي مكان آخر!

شيء أقسى من النكسة؟

بعد الهزيمة العسكرية سنة 1967 أقمت معرضًا تنقلت به بين المدن المصرية ثم في ليبيا، والمعرض كان يضم كتبًا عن القضية الفلسطينية والصهيونية والسامية والعداء للسامية، وكان من رأيي – ولايزال – أننا انهزمنا لأننا كنا نجهل حقيقة إسرائيل والعسكرية الإسرائيلية، وأننا بالغنا في قوتنا وقدرتنا على الصد والرد، فأخذت إسرائيل ما تستحقه من نصر، وتجرعنا ما نستحقه من هزيمة، والعلاج هو أن نعرف عدونا، فلما عرفناه انتصرنا عليه في 1973، ولما حللنا مشاكلنا مع إسرائيل اتخذت كل العلاقات حجمها الطبيعي، وأصبحنا ننظر إلى إسرائيل في عينيها.. عرفناها وعرفتنا.

وكان اسم المعرض المتنقل: اعرف عدوك.

وكانت مفاهيمنا في ذلك الوقت غير دقيقة، فقد بالغنا في كل شيء.. في الكراهية وفي القوة والضعف وتسلط علينا شعور بأن العالم كله يتآمر علينا، وأننا انهزمنا لا لأننا لم نكن مستعدين، وإنما لأن الدنيا كلها قد حاربتنا، وما زلنا نقرأ ونفهم ونسأل ونعرف حتى اعتدلت الموازين والمقاييس في أيدينا، فلا خوف من أحد وإنما نحن أيضًا قادرون، وأننا تعلمنا الدرس الأليم، ولم نضيع الوقت في البكاء

على الماضي، وإنما زرعنا الأرض وأقمنا القرى السياحية والفنادق في سيناء وعلى ساحل البحر الأبيض والأحمر، وقد انبهرت إسرائيل بهذه القدرة الهائلة على الإبداع، وصارحونا هكذا: مادامت لديكم هذه المقدرة الفذة على الإبداع والبناء، فلماذا سكتم ألوف السنين فلم تضعوا حجرًا على حجر في سيناء، حتى بدأنا نحن ببناء قرى متواضعة مثل ياميت وغيرها؟

وقد طلب مني الرئيس السادات أن أذهب لأرى قرية ياميت أو البحر الصغير، وأن أرى مدرسة البيئة التي يتحدثون عنها وأرى ماذا فعلوا في بحيرة البردويل، وذهبت ولم أنبهر، ولكنهم استطاعوا أن يملأوا الدنيا كلامًا وصياحًا عن قراهم ومدارسهم ومصائد الأسماك من مياهنا.

وقلت هذا في افتتاح المعرض في مدينة طرابلس، وجلسنا وسألني أحد الحاضرين، وكان سؤاله طويلاً لدرجة أنني لم أعرف بالضبط ما الذي يقوله، ونظرت إلى السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية وكان يجلس في الصف الأول مع القيادات الليبية، وكان واضحًا أننا جميعًا لم نفهم، وقام واحد يسأل: يعني إيه: بعيد بعيد وحدينا، مش عيب واحدة زي أم كلثوم عجوز تقول إنها تريد أن تنفرد برجل بعيد بعيد وحدينا.. لا الكلام ولا الصوت ولا اللحن يليق بها ولابنا؟!

ولم أعرف ماذا أقول، وظهرت حيرتي، وقلت له: إن الذي سمعته الآن هو أقسى من النكسة، إنها هزيمة للذوق والجمال والموسيقى نسأل الله أن ينصرنا هنا وهناك!

انظر ماذا يدخن كبار الصحافيين

دعانا الموسيقار محمد عبد الوهاب إلى العشاء، ووافقنا فورًا، فاللقاء بعبد الوهاب وهذه الشلة من الصحافيين متعة مؤكدة: موسيقى وغناء وطرب ونكت وكل أسرار الحياة الاجتماعية والسياسية والصحافية في مصر.

وتأكدنا من أننا جميعًا سوف نذهب، وما دمنا سنتأخر طويلا فلابد أن يأتي كلٌ بسيارته ولا يعتمد على أحد في أن يوصله إلى بيته. ولنا تجارب أليمة في مثل هذه اللقاءات عند عبد الوهاب وعبد الحليم وفريد الأطرش وأم كلثوم ويوسف وهبي، فكثيرًا ما قرر أي واحد أن ينصرف قبل العشاء أو أثناءه وينسى أنه قد أتى معه بأحد الأصدقاء وأنه بلا سيارة تعيده إلى البيت.

وتحدث مصطفى أمين عن الصحافة الحديثة وعن نمو الشخصية الصحافية وشكا من الشبان لأنهم لا يقرأون ولا يعرفون لغات أخرى، وإذا عرفوها فهي عاجزة عن ربطهم بالغرب وبالنهضة الثقافية والصناعية وتحدث عبد الوهاب عن الأصوات الجديدة التي تصادفه أو التي تقف على بابه، وأنه استمع إلى كثير من الأصوات ولم تعجبه الأصوات لأنها غير مثقفة وغير مدربة، وأن أصحابها مستعجلون

جدًا، وأنهم يرون عبد الوهاب الذي بلغ القمة بعد سنوات طويلة، أما القمم عند الشباب فقريبة وممكنة في أي وقت!

وعاب علينا أننا نعرف مثل هذه الظواهر في الأدب والفن ونسكت عن هذا الغرور والجهل، وأنه لا أمل في أي شاب إذا تصور أن النجاح والشهرة والفلوس تجيء دائما لأي إنسان إذا التفت إلى ذلك، وأن الأجيال الجديدة تستطيع أن تملأ هذا الفراغ في الأدب والفن إذا أعطاهم الكبار فرصة للظهور!

وفجأة تحدث كامل الشناوي وهو مصدر المرح والحيوية في ليالي القاهرة وقال: حتى كبار الأدباء والصحافيين لا شخصية لهم، بل قد وقفوا وتحجروا على كلام واحد وطعام واحد، انظر، انظروا إلى ماذا يدخنون، إنهم يدخنون نوعًا واحدًا من السجائر مع أن هناك أنواعًا مختلفة!

وضحكنا، فقبل أن نجيء إلى عبد الوهاب توقفت سياراتنا ونزل كامل الشناوي واشترى علب سجائر صغيرة ووزعها علينا، وكان هذا هو المقلب الذي شربناه، وفضحنا كامل الشناوي الذي اختار السجائر ووزعها علينا ليقول بعد ذلك: لا شخصية لهم مع أنهم يطالبون طول الوقت بأن يكون للأديب والفنان سلوك متميز!

أصبحوا (الآخرين) فوجبت الحرب!

الكاتب الإنجليزي «هـ . ولز» له رواية اسمها «حرب العوالم» وتقوم على هجوم من سكان المريخ، فسكان المريخ هم (الآخرون)، أي كائنات غيرنا تشعر بالعداء لنا، إما لأننا بالغنا في قوتنا ونهددها، أو أننا لا نطيعها، ولابد من الاستسلام التام لها.

أي أن الحرب تبدأ عادة بيننا والآخرين، الذين ليسوا على ديننا أو لوننا أو أنهم الوحوش أو الميكروبات أو مظاهر الطبيعة أو غضب الآلهة.

وليس كاليجولا وستالين وهتلر وصدام إلا ممثلين للآخرين، ولذلك أشعلوا النيران في الشعوب والمذاهب.

وفي حياتنا العادية، يبدأ أحدنا بأن يقول للآخر: «أنا كنت فاكرك ملاك.. وإذا بك شيطان، كنت أظنك مخلصًا فوجدتك خائنًا»، أي أنه إنسان (آخر) غير الذي توقعت، وهذا يكفي لأننا نتخانق ونتحارب ونتقاتل حتى الموت.

وفي الملاكمة والمصارعة يقوم المدربون بإشعال نار الغيرة والغيظ والانتقام بين الأبطال، فيقول للواحد منهم: إن فلانًا ينافسك،

وقد أقسم على أن يكسر رقبتك ويجعلك أضحوكة، ثم أنه يحكي طلاق والدتك من زوجها الثالث ويضيف لها نوادر ويعيد ويزيد، ثم أنه أكد للناس أنه كان على علاقة مع أختك.

فإذا باللاعب يصبح في حالة من الرغبة في الانتقام والقتل، ويدخل الحلبة ليحارب واحدًا آخر غير الذي كان يعرفه، وإنما هو أسوأ وأحقر، فإذا أصبح المنافس إنسانًا آخر، كان ذلك سببًا وجيهًا للقضاء عليه. وفي المصطلح الشعبي عندنا تعبير يقول: جر شكل، أي الاستدراج إلى التنافر والضرب، أي استفزاز أي إنسان ليكون شخصًا آخر، فإذا صار آخر، كان ذلك سببًا كافيًا للحرب بين الشعوب وبين الجماعات والأفراد.

وفي السياسة، نحن نصنع المعارضة ونضع الزيت على النار، ففي صحف المعارضة محاولة يومية لإقناع الناس بأن الحاكم إنسان آخر غير الذي عرفناه، غير الذي انتخبناه ووضعنا رقابنا وأولادنا وأحفادنا في يديه، إنه لم يعد ذلك المثل الأعلى فقد أحاط نفسه بعدد من اللصوص والانتهازيين فنهبوا وسكت، وسرقوا ولم يأبه، وهربوا ولم يلاحقهم، لم يكن كذلك، وإنما هو مختلف، هو آخر، ولذلك أصبحت الحرب واجبة واستعداء الملايين لأنه هو العدو، صار العدو، لقد أصبح (آخر)، وبطانته هم (الآخرون)!

كنا وجوديين نقرأ عن الحياة ولا نعيشها!

عندما جاءت المطربة الفرنسية جولييت جريكو إلى مصر، بفستانها الأسود المحزق، الذي جعلها ليلة مقمرة تطل من وراء سحب سوداء، والذي جعلها أكثر بياضًا وبريقًا وجمالاً، التففنا حولها: الشاعر صالح جودت والشاعر أحمد رامي والمفكر الأرستقراطي جورج حنين وصاحبة المكتبة الفرنسية إيفت فرزلي، وقالوا إنها وجودية، ووجدوا في كل تصرفاتها دليلاً على أننا نحن الوجوديين كذلك، هي عندها شجاعة وجرأة ولسنا قادرين على ذلك، وإنما هذا رأينا في الناس وفي السلوكيات الاجتماعية، ولم أر في كل تصرفات جولييت جريكو ما يعيبها، إنها فرنسية جميلة ومطربة وحياتها مختلفة، لأن الفنانين مختلفون، والفنانون الفرنسيون أكثر اختلافًا، فإذا أضفت لها الجمال والأنوثة والشجاعة فما الذي لاتتوقعه منها! قالت: أنا أجمل من نفرتيتي. فقلت: مؤكد. قالت: لماذا؟ قلت: لأننا لم نر نفرتيتي حية تسعى، ولكننا نراك ونجلس إليك ونملأ أحلامنا، وننظر ونتملى ونسرح ونتمنى، وإن كنا لا نجد في كتبنا الوجودية شبيهًا لك، فلتكوني نصًا جديدًا، أو كتابًا ليس له نظير بين الكتب.

– ولا تريد أن تجاملني فتقول إنني أجمل من نفرتيتي ونفرتاري وكليوبطرة وشجرة الدر.

– بل أنت فعلاً أجمل من هؤلاء الموتى.

– ولو كن جميعًا أحياء فمن تختار؟

قلت: أختارك.

وقال رامي: أنا أختار شجرة الدر. وقال صالح جودت: أنا أختار كليوبطرة. وقال جورج حنين: أنا لا أجد بديلاً عن (بولا). أما بولا هذه فهي (إقبال العلايلي) حفيدة أمير الشعراء شوقي، التي صارت زوجته بعد ذلك. قالت لي: ترقص؟ قلت: معك لا أستطيع، أنا لا أحتاج لرقص، فأنا راقص دائخ وأنا جالس إليك! وفجأة ظهر شاب لطيف وسيم وتقدم من جولييت جريكو وسألها إن كانت ترقص، فوافقت، وظل الاثنان يرقصان ويشربان طول الليل وفي الظلام اختفيا، وعرفنا نوعًا آخر من الحياة الوجودية، إنهم أناس ليسوا في حاجة إلى كلام ونظريات واستشهاد بأسماء الفلاسفة، إنها الحياة المباشرة.

ومنذ ذلك الحين إلى أن رأينا جولييت جريكو في باريس، ونحن نؤمن بأن الوجودية حس مباشر وحياة أبسط وليس ورقًا نكتبه ونأكله ونعيشه حبرًا على ورق.

لقد كان درسًا موجعًا لنا، ولكننا لم نتعلم!

اضحك.. حتى لو لم يكن هناك سبب!

الضحك يغسل النفوس، أو هو يشبه (مساحة المطر) في مقدمة السيارات، أو هو مثل الهزة العنيفة للطيور والحيوانات عندما تخرج من الماء. فهي تنفض الماء عنها، والضحك ينفض الهموم. والمفاتيح التي نستخدمها كثيرًا هي التي تلمع، وكذلك النفوس التي تضحك هي التي تلمع وتضيء.

وقل لي ماذا يضحكك أقل لك من أنت!

وأنا أضحك، وإن كنت أبدو غير ذلك، وكنت فيما مضى أصنع النكت، وأضحك أكثر عندما تنتشر النكتة في كل مكان، وتردد بعد شهر أو شهرين ثم تعود لي، وكنت أشارك في صنع النكت مع كامل الشناوي ومأمون الشناوي ثم مع الوزير أحمد رضوان وزير الثقافة، وكثيرًا ما جلسنا معًا، وكثيرًا ما تعذرت وتعثرت النكتة فيكملها أحدنا، حتى النكتة التي أطلقتها على الرئيس عبد الناصر، وكانت هي وأشياء أخرى سببًا في فصلي من الصحافة، ومن التدريس في الجامعة سنتين في الشارع أحاول الهرب إلى السعودية.

وكان أستاذنا العقاد وهو الرجل الجاد جدًّا والمتجهم معظم الوقت والعملاق دائمًا يسأل: إيه يامولانا آخر النكت؟ وكان بعضنا يقول، وتفاجأ بأن لديه نكتًا لا نعرفها، بعضها من صنعه، ثم يضحك عليها أكثر منا جميعًا!

وكانت أم كلثوم كذلك. وفي بعض الأحيان كان الرئيس السادات يسألني: وبيقولوا علينا إيه يا أنيس؟ وكان يسبقني إلى النكت التي سمعها وبعضها لا أعرفها وكان ذلك يشجعني على أن أقول ما يصح أن يقال.

وكان الرئيس السادات يضحك من قلبه إذا نقلت إليه آخر النكت عنه، ليس كل النكت!

وكان الدكتور بطرس غالي يطلبني من مكتبه في الأمم المتحدة، ويقول لي آخر النكت، لابد أن أحدًا قد نقل إليه ما يتردد في مصر، ويضحك بصوت مرتفع، وإذا سمعته يحكي النكتة ويضحك لها، تخيلت أنه رائق تمامًا ولا عنده هموم الكرة الأرضية، ولكن النكتة والضحك شفاء، ودليل على الحيوية والقدرة على الإفلات من المشاكل اليومية.

اضحك وإن لم تجد ما يضحكك فانظر إلى نفسك في المرآة واسأل نفسك: أنت زعلان على إيه؟ يا راجل اضحك ولا يهمك، فالذين يحزنونك لا يساوون وزنهم ترابًا، اضحك لنفسك، على نفسك!

التفسير: هناك كيمياء بينهم!

نقول: بين فلان وفلان كيمياء، أي أنهما إذا التقيا تفاعلا فكان مادة جديدة، أو كان تركيبًا جديدًا، ويقال: ليست بينهما كيمياء، أي من الصعب أن تسفر هذه العلاقة عن شيء جديد. أي كلما التقيا كان الناتج جديدًا، فهي علاقة مثمرة، أو علاقة ولود، وليست جافة عقيمة، ونجد الفتاة الجميلة أحبت رجلاً دميمًا، وتنظر من بعيد وتندهش، ولكن السبب هو هذه الكيمياء، ونجد رجلاً وسيمًا والفتاة التي إلى جواره دميمة، وتسأل وتتعب دماغك، والمثل الشعبي يقول: ياوحشة كوني نفشة، أي إذا كنت دميمة فكوني ذكية لعوبًا، أي عليك أن تعوضي دمامتك بخفة دمك.

يعني إذا رأيت هذه الصورة فلا تتعب دماغك، لأننا لا نعرف كيف بدأت بعيدًا عن عيوننا وكيف استمرت بعيدًا عن آذاننا.

في أحد الأفلام المصرية رأيت ابن العمدة يضرب خطيبته بالجزمة على دماغها وعلى ظهرها وهي تضحك، وكانت تصرخ من الألم، ثم يتعانقان بعد ذلك.. ما هذا؟ ولا حاجة إنه نوع من الدلال، أنت تسميه دلالاً غليظًا، ولكنهما يسميانه دلالاً ويريان أن الضرب هو اهتمام شديد وغيرة وكيمياء، ربما لا يعرفان كلمة كيمياء، ولكننا

نعرف، وكما أن خلط المواد والأحماض يؤدي إلى تفاعلات تفرز مادة جديدة، فالذي نراه حركة عنيفة مضافة إلى ابتسامة إلى حركة أعنف تؤدي في النهاية إلى عناق وتأكيد للمحبة ومقدمة لكثير من الأولاد!

وفي الريف المصري تسمع الفلاحين إذا ضربهم العمدة بالعصا أو حتى بالجزمة فإنهم يقولون: ضربك شرف ياعمدة! أي أنه يشرفهم بأن يخصهم العمدة بالضرب بالعصا أو بالجزمة.

يعني إيه؟ إنها كيمياء أيضًا ولا يهم أن تعجبك أو تغضبك.. إنها كيمياء وإذا لم تعجبك فمعنى ذلك أنه ليس بينك وبينهم كيمياء!

ولقد صنعتك من هوايا ومن جنوني!

صدفة أو عن عمد، جلست إلى عدد من ملهمات شعرائنا الكبار، شيء واحد يجمع بينهن: لسن جميلات. قال الشاعر كامل الشناوي:

كوني كما تبغين لكن لن تكوني

فأنا صنعتك من هواي ومن جنوني

ولقد برئت من الهوى ومن الجنون.

كل كلامه صحيح، إلا أنه لم يبرأ لا من الهوى ولا من الجنون! فالملهمات صناعة شعرية. ولولا أنه ليس مألوفًا عندنا أن نذكر ملهمات الشعراء وكلهم وكلهن قد ماتوا لذكرت الأسماء وأين ومتى وكيف، ولكن يمكن أن يقال شيء ما.

قابلت ملهمة الشاعر أحمد رامي وكانت له ملهمات كثيرات جدًّا، هو يقول وكان يتعمد ذكر بعضهن، والسبب هو إخفاء حقيقة الملهمة المصرية أو الملهمة السورية، جلست مع السورية، نعم بيضاء وكل السوريات كذلك. حلوة ولكن دمها ثقيل جدًّا. حاولت أن أذهب إلى ماضيها، لم أجد شيئًا يجذبني إليها ولا حتى كلامها عن الشاعر الكبير!

جلست إلى ملهمة بلدياتي الشاعر الطبيب إبراهيم ناجي، فصيحة وأديبة وبارعة في الكتابة وعندها إحساس مرهف، وبس، ولكن لا أستطيع أن أحبها، ولا أطيقها أكثر من ساعة، ولا أعرف كيف أنهما كانا يتكلمان بالساعة لا طعام ولا شراب.. كيف؟

وعلى مضض قابلت ملهمة الشاعر صالح جودت، وكنت لا أحبها، لأنها كانت سببًا في عذابه، من يدري ربما كان يستعذب هذا العذاب، ووجدتها تتحدث عن نفسها أكثر من الحديث عنه، ووجدتها لا تحفظ له بيتًا واحدًا، بينما تحفظ كل أشعار علي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل، غريبة! أما ملهمة أستاذنا عباس العقاد فهي ولا حاجة!

(سعيت) إلى معرفة ملهمة الشاعر بلدياتي علي محمود طه صاحب قصيدة (الجندول)، التي تغنى بها عبد الوهاب، جميلة والله، جلست إليها وكنا دائمًا أمام المرآة هي تريد ذلك وهي ترى نفسها طول الوقت وتسوي شعرها وتلون شفتيها وأظافرها. وتقوم وتقعد بلا سبب إلا أن ترى فستانها، وبقدرة قادر تحس أنك ترزي أو كوافير، وأن المطلوب منك بعد أن ترد على تساؤلاتها عن فستانها أو شعرها أو لون أظافر يديها أو قدميها.

عندك يقين واحد أن الشعراء مجانين وأن ملهمات الشعراء من صنع الشعراء من هواهم ومن جنونهم، في عيونهم وآذانهم وخيالهم، وإن كن يملأن عينيك ولا يدخلن أذنيك ولا يزاحمنك في فراشك وأحلامك.

المرأة بالذخيرة الحية لملاقاة الرجل!

أول عمل قمت به في صحيفة «الأهرام» المصرية من 55 عامًا، هو الكتابة عن الموضة والأزياء، ولم أكن أعرف شيئًا من ذلك، فلم أكن أهتم كثيرًا بما ترتديه المرأة، وطبعًا بما أرتديه أنا أو كل الرجال، فقد تدربت على النظر إلى ما تحت الجلد، وليس إلى ما فوقه. علمتني الفلسفة أن أستغرق في الذي يتبقى من الإنسان، فالإنسان وما يرتديه زائل، أما الذي لا يزول فهو الفكر والقيم والمبادئ، ولست آسفًا كثيرًا على سنوات ضاعت من العمر وأضاعت العمر فيما يفيد، ما علينا!

وفي ذلك الوقت واجهت هذه الصعوبة بأن قررت أن أنجح، فذهبت إلى مصممات الأزياء المصريات والفرنسيات والمتفرنسات أسأل عن كثير من المفردات الخاصة بفساتين المرأة والبلوزة والصديري والقميص والكورسيه والسوتيان والجاكت والبلوزة والبلوزون والجوب والجيبون والميدي والميني والشوال والسابرينا والرجلون والبابيت، وهذه الكلمات قد لا تصادف الرجال في كل حياتهم، وإنما هي المفردات التي ترددها المرأة مئات المرات في اليوم الواحد، ووضعت في جيبي قاموسًا لكل هذه المفردات واجتهدت وكان لي

رأي بعد ذلك، حتى ظن بعض الناس أن اسمي ليس اسم رجل، وإنما هو اسم سيدة. وكنت أترجم ما تبعث به مراسلة «الأهرام» في باريس واسمها إليس باخوس، وفي يوم اشتكت الآنسة إليس باخوس من أن زميلتها إنييس منصور قد غيرت وبدلت وابتكرت خطوطًا لم تعلنها دور الأزياء الباريسية!

وكان مشواري صعبًا شاقًا من أفلاطون إلى مدام أفلاطون، أما أفلاطون فهو الفيلسوف الإغريقي العظيم، أما مدام أفلاطون فهي أشهر مصممة أزياء في الأربعينيات والخمسينيات في العالم العربي، وبالموضات ومتابعة خيوطها وخطوطها وألوانها أحسست أنني اقتربت إلى المرأة، فالفستان هو بشرتها الثانية، بل أجمل من بشرتها، وإذا كانت المرأة تنظر إلى ما يغطى من جسم الرجل، فإن الرجل ينظر إلى ما يتعرى من جسمها، والفستان كاللغة تكشف وتغطي، فالفستان يجعل الجسم أجمل، فهو يضغط على النهدين والردفين ويبرزهما، فهو يكشف أكثر مما يغطي، والفنان والمفكر والفيلسوف هو مصمم الأزياء الذي يرسم لوحات ويصنع تماثيل ويزوج الألوان بعضها إلى بعض، ويزف المرأة في موسيقى الألوان والعطور، وتنبع الموسيقى من حذائها وشنطتها وخطوط في العينين والشفتين والحاجبين، والمرأة إذا خرجت من بيتها فهي قد تسلحت بكل ما هو جميل، فهي تتحرك بالذخيرة الحية، والهدف والضحية هو الرجل، جيوب الرجل، وعقله وقلبه، فالمرأة ليست وحدها، وإنما وراءها جيش من المصممين والحلاقين والإسكافيين والعطارين. أما

الرجل فهو منزوع السلاح، ويدل ذلك على أن المرأة أضعف، فهي تعتمد على مئات غيرها، والرجل يقف على رجليه وحده، وهي معركة غير متكافئة والمنتصر هو الأضعف، والمهزوم هو الأقوى، وهذه هي الدوخة.. ابتكرها رجال آخرون لهزيمة الرجل!

تقدم الحصان شامخًا وقفز في حوض الموت!

أسعدني القرار الذي اتخذته الحكومة الإنجليزية بإلغاء السيرك المتجول الذي يستخدم حيوانات مستأنسة، كالأسد والنمر والثعلب والفيل، ويرون في ذلك قسوة عليها وأنها تترك أثرًا سيئًا في نفوس الأطفال؛ لأن مدربي السيرك يستخدمون الكرباج والعصا، وفي بعض الأحيان ترفض النمور والأسود إطاعة الأوامر.

كما أن بعض هذه الحيوانات قد تقدمت بها السن وترويضها شاق عليها، وبعض هذه الحيوانات مريضة، ولا تلقى العناية الكافية. وأسعدني القرار؛ لأسباب أخرى.

أذكر أنه كان عندنا سيرك قومي كبير، وكان مقره المكان الذي يشغله الآن مسرح البالون، وكنا نذهب مع عدد من الزملاء الفنانين الذين صاروا بعد ذلك أساتذة الفن والإخراج الصحافي في مصر، نتفرج ولا نمل.

وكانت هناك لعبة بطولة، فعلاً بطولة مؤكدة ومخيفة، وكلمة مخيفة لا تدل تمامًا على شعوري في ذلك الوقت، واللعبة عبارة عن حصان يصعد سلمًا عاليًا وتمتطيه فارسة حلوة شقراء وفي يدها

كرباج، والحصان يصعد شامخًا واثقًا ثم يقف عند حافة السلم الصاعد ويلقي بنفسه والفارسة في حوض من الماء، كل ليلة، ومن الماء تقفز الفارسة وتساعد الحصان على أن ينهض ويقف إلى جوارها ليسمع عاصفة من التصفيق، مع أن البطل هو الحصان. ولا أعرف إن كان الحصان يدري بالذي يفعله تحت الزجر والنهر والتهديد والكرباج سنوات طويلة حتى تدرب تمامًا على ذلك.

أما شعوري فهو الإعجاب والخوف والقرف، وتساءلت عن سبب القرف فعرفت أنه الإكراه على هذا الأداء العنيف.

وبعد ذلك لم أعد أستطيع أن أرى حصانًا يجري، أو أطيق أحدًا يضرب الحصان بالكرباج، فقد حدث ما أوجعني كثيرًا وسنوات، ففي إحدى الليالي صعد الحصان عاليًا شامخًا ووقف عند حافة السلم وتحولت الضوضاء إلى صمت رهيب، وقفز الحصان فسقط خارج الحوض الحديدي، وتحطمت ضلوعه، أما الفارسة فقد أفلتت من هذه الصدمة، لقد مات البطل، مات الحيوان النبيل أسوأ ميتة، ولم أنم ليلتي ولا استطعت ليالي طويلة، ولم أعد قادرًا على رؤية الخيول تجري أو تجر عربات الحنطور، وكنت قبل ذلك أحب الخيل وسباق الخيل، وامتنعت نهائيًا، فلم أفلح في أن أتخلص من هذا الكابوس؛ ولذلك كانت سعادتي غامرة عندما قررت بريطانيا إلغاء استخدام الحيوانات في السيرك، وفي مقدمتها الخيول، شكرًا وعقبال عندنا!

كان لابد أن أحذف 300 صفحة!

كان لي صديق من أربعين عامًا، وفقدته هذا الأسبوع، إنه يوناني كان ضابطًا في البحرية البريطانية أثناء الحرب، وفي الإسكندرية عمل في استعلامات أحد الفنادق، جلسنا معًا طويلاً، وهو الذي نبهني إلى كتاب بديع من تأليف الكاتب الأميركي إرفنج والاس، الكتاب اسمه «الجائزة» قرأته، بهرني، وفي ذلك الوقت كنت في الشارع بعد أن فصلني الرئيس عبد الناصر لاتهامي بأنني كتبت مقالاً هاجمته، وكان ذلك سنة 1961.

وترجمت الكتاب في ألف صفحة، إنها رواية فاتنة، وعند طبع هذا الكتاب كان البرلمان المصري يهاجم رواية الأستاذ إحسان عبدالقدوس «أنف وثلاث عيون»، وإذا كانت رواية إحسان عبد القدوس فيها القليل من الجنس فإن هذه الرواية الرائعة فيها الكثير، ولكن الكتاب ليس جنسيًا، وإنما الجنس ضرورة في حياة الذين فازوا بجائزة نوبل.

ولذلك عكفت على الرواية فاختصرت منها 300 صفحة، كنت أحذفها وأنا شديد الألم، فقد تعبت في ترجمتها، وتعبت مرة أخرى في

حذفها، وأحسست أنني مثل الثعالب التي يضعون لها الفخاخ فتقع فيها، وتظل تقضم بأسنانها ساقًا أو ساقين لكي تنجو بما تبقى لها، ولذلك فقد حرموا في كندا وروسيا صيد الثعالب بالفخاخ، وصدرت الرواية الجميلة، ولم أحاول أن أعيدها إلى ما كانت عليه.

وغضب صديقي اليوناني لامبو، ولكن الضرورة لها أحكام، وهو على البر، والمثل يقول: اللي على البر شاطر، وهو شاطر لأنه اللي إيده في المياه مش زي اللي إيده في النار. وذهبت لأقدم واجب العزاء فوجدت زوجته وابنتين، واحدة تعمل في أحد الفنادق في اليونان والثانية تعمل في سفينة سياحية، واندهشت أن وجدت ضمن أوراقه خطابات كان في نيته أن يبعث بها، لكن لا أعرف لماذا لم يفعل. من بين هذه الخطابات رسالة تقول بالإنجليزية: لم يكن من رأيي أن تحذف هذا الكم الهائل، وكان الأفضل أن تبقى كما هي، على أن تنشرها فيما بعد، وسوف تتغير الأوضاع في مصر وتحصل على حرية أوسع!

مسكين (خرالمبو) وهذا اسمه بالكامل، لم يعرف أنني بلا عمل سنتين وأنني في حاجة إلى فلوس، وأنني لا أستطيع أن أعيد طبع كتبي، فلا ناشر يجرؤ على ذلك وهو يعلم أنني على خلاف مع رئيس الدولة.

ثم شاءت الصدفة البحتة أن أقابل ابن مؤلف الرواية، وقد غير اسمه فجعله دافيد والنسكي وأخته ريمي والاس، وقالا إنه من الصعب عليهما أن يخبرا والدهما بما حدث لأروع رواياته.

ووجدت في أوراق لامبو خطابًا بعث به إلى المؤلف إرفنج والاس يطلب فيه أن يجد لي عملاً في أميركا وأنه مستعد أن يقوم بتهريبي من ميناء الإسكندرية لأن له علاقات كثيرة بالعاملين على ظهور السفن.

وكنت قد حاولت الهرب إلى السعودية من ميناء بورسعيد، ولكنهم ضبطوني في آخر لحظة، يرحم الله صديقي جاكمو خرالمبو!

وقال لي الرئيس السادات: لا والله!

كان الرئيس جمال عبد الناصر يستمع إلى المشتغلين بالأرواح والعفاريت، من بينهم عميد كلية العلوم الشيخ محمد لبيب، وكان الشيخ محمد لبيب صديقي وصديق السفير السعودي أسعد أبو النصر، وكنا نستدعيه لتسلية الضيوف بألعابه الغريبة، وليست فيها خدعة واحدة، فكلها عيني عينك، يضع الكوب في جيبك ويستخرجه من جيب أي واحد من الحاضرين، ويلقي بالكوتشينة إلى السقف فتستقر هناك ويستدعيها ورقة ورقة، وقد طلب من السيدة أم كلثوم خاتمها، فرفضت، فأخذه من زوجها د. حسن الحفناوي ووضعه في كوب من الماء وألقيناه من النافذة وطلب منها أن تبحث عنه في حقيبة يدها، فرفضت دخول العفاريت في شنطتها، وأشارت ناحيتي وقالت: عندك أنيس وكلكم عفاريت زي بعض! وأخرج الخاتم من جيبي؟!

وكان الرئيس السادات ينفر من هذه الممارسات، وقد طلبت مني حرم الرئيس الإسرائيلي حاييم هرتسوج أن تقرأ للسادات الكف، فاعتذر، وقال: أنا لا أحب هذه الممارسات، لكن جيهان تحب ذلك!

وكان حاييم هرتسوج في مصر وطلب مني لقاء الرئيس السادات، فكان أول شخصية إسرائيلية تنتقل من القاهرة إلى أسوان في طائرة

عسكرية مصرية، وكان مندوبًا لإسرائيل في الأمم المتحدة، ثم رئيسًا للدولة وزوجته مصرية من الإسماعيلية، وكنت قد نقلت للرئيس السادات أنها أول من تنبأت لي بأنني سوف أفوز بجائزة الدولة التقديرية سنة 1980 وبجائزة أخرى لم تخطر على بالي من البرلمان الهندي، وهي جائزة الإبداع الفكري لدول العالم الثالث، وقد تسلمها نيابة عني سفيرنا في ذلك الوقت عمرو موسى. وقلت للرئيس السادات إنني سوف أقدم برنامجًا في التليفزيون لعدد من المشتغلين بهذه الممارسات: صديقي - قارئ الكف - محمد جعفر الذي تنبأ بقرار فصلي في اليوم والساعة وبسجن مصطفى أمين تسع سنوات، وقارئ الكرة الكريستال صديقي الراهب فردي الذي تنبأ لنجيب محفوظ بالحصول على أعظم جائزة في الدنيا، فتحقق ذلك بعد ستين عامًا! وبالحاج حسنين المنيلاوي الذي سافر مع توفيق الحكيم في القطار إلى أسوان وتحداه توفيق الحكيم، فقبل التحدي ومد يده إلى النافذة، فجاءه سندوتش فراخ من جروبي، وكان ساخنًا ثم زجاجة كوكا، وضحك توفيق الحكيم وقال له: بالمرة عاوز فنجان قهوة سكر شوية، وخرجت يده وجاءت القهوة وشربها الحكيم وتأكد أنها ليست خدعة وطلب منه الشيخ المنيلاوي أن يدفع ثمن كل ذلك وأعطاه الحكيم ثمنها، فألقاه الرجل من النافذة.

وفي اليوم التالي لقيت الرئيس السادات وأقبلت عليه متهللاً: شفت يا ريس البرنامج؟

قال: لا والله!

مطلوب وصفة لكي أنام نومة الكلاب!

بعد أن قرأت ما كتبت أستاذة الذوق والرشاقة والأناقة شيرلي شلبي (ش. ش) عن كيف تتناول طعامك، وكيف تكون متحضرًا، هذا بالشوكة وهذا بالشوكة والسكين، وهذا بالملعقة، فوجدت أنني أكاد لا أستخدم كل هذه الأدوات في أي وقت، فاللحوم والطيور لا تهمني لأنني لا آكلها، والجمبري والأسماك لا أستخدم معها لا شوكة ولاسكينًا فغيري يقوم بنزع أشواكها، أما المكرونة فأنا أعرف جيدًا كيف أتناولها بالملعقة والشوكة، فقد تدربت على ذلك شهورًا في إيطاليا، وأما الشوربة فأتناولها كالشاي بلا ملعقة ولا شوكة ولا سكين. وأضيف إلى شيرلي شلبي أنني لاحظت أنهم في باريس يقدمون كوب الماء ناقصًا كثيرًا فسألت: فقالوا: لكي تطلب منا المزيد، أي لنكون في خدمتك! وأما الفاكهة فلا أظن أنني ألجأ لكل هذه الأدوات، همجية؟ لا. ولكن أحب أن أقضمها كما كان يفعل أبونا آدم وأمنا حواء في الجنة! ولابد أن كثيرين تهمهم كل هذه التعليمات من السيدة (ش. ش) ولكنَّ لي طلبًا عندها، فأنا أرجو وأتوسل أن تتعب نفسها قليلاً وأن تكتب لي، ولملايين مثلي، كيف ننام، ما هي مقدمات النوم، وهل ننام على الجانب الأيسر أو الأيمن أو الصدر أو الظهر، لقد كان صديقي العزيز

يوسف السباعي ينام جالسًا أو ينام على الأرض، وهو مثل كل العسكريين ينامون بسرعة، فالقاعدة عندهم: إذا جاءك النوم فاستسلم له فأنت لا تعرف متى ستنام بعد ذلك. وكان صديقي الشاعر كامل الشناوي لا يحلو له النوم إلا في السيارة، فكان يطلب منا قبل أن نعيده إلى البيت أن ننطلق إلى أي اتجاه فكنا نتجه من مصر الجديدة إلى الهرم فينام نومًا عميقًا، حاولت أن أنحرف بالسيارة لكي نعيده إلى البيت كان يصحو ويطلب أن نمضي حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت فهذا موعد السرير، فكان لا يأوي إلى فراشه إلا في ضوء الشمس.

وكان الإمبراطور نابليون ينام فوق حصانه في قلب المعركة! وكان الأستاذ توفيق الحكيم يضع عصاه تحت جبهته وينام عميقًا وطويلاً! وكان الشاعر إبراهيم ناجي إذا أخرج منظاره الأسود أدركنا أن المنظار يقوم بدور اللحاف يسحبه على جسمه لكي ينام، وينام.

وعندي كلب لا يشبع من النوم، ولا يحلو له النوم إلا ملتصقًا بذراعي أو بساقي، ولا أعرف من أين يأتي بهذا النوم الطويل العميق، وهذا الكلب مفروض أنه كلب حراسة، أي لحراستي، أي هو الذي يحرسني، ولست أنا الذي أحرسه، ولذلك أنقله من سريري نائمًا إلى مكتبي ليستأنف حراستي في المنام!

وأرجو السيدة شيرلي شلبي أن تجد لي عندها وصفة سحرية ولا أطمع في أن أنام مثل كلبي، وإنما مثل بقية خلق الله!

والله أعلم!

عندك قليل من الصبر؟ إذن يمكن أن تتابع هذه المعلومات أو هذه التساؤلات، وقد تدربت أنا طويلاً على مثل هذه المعلومات. نحن لا نعرف بالضبط ما هذا الكون الذي حولنا أو الذي نحن جزء متواضع منه، هناك نظرية تقول: إن الكون الذي تراه ليس إلا 10٪ من الكون، أما الباقي فهو (المادة السوداء)؛ أي المادة التي لا نراها، ونحن لا نراها لأنه لا ضوء يصدر عنها. مثلاً في المجموعة الشمسية لا يوجد إلا الشمس وحدها هي التي نراها، أما الكواكب التسعة فهي مادة سوداء، فلا ضوء يصدر عنها، وهناك الثقوب السوداء، وهي مساحات هائلة من الكون بها جاذبية هائلة تبتلع كل ما حولها من ملايين النجوم، ولأن الجاذبية جبارة فإنها تبتلع الضوء الصادر عنها وبذلك تصبح مظلمة لا نراها، وهناك أجسام هائلة أخرى مظلمة أو خافتة الضوء مثل النجوم التي قاربت الموت وما لا نهاية له من النيازك والشهب والسحب الترابية والغازية، وكلها مادة سوداء. وهناك طريقتان لمعرفة وزن وكتلة هذه النجوم والمجرات في الكون وذلك بقياس الأشعة والطاقة الصادرة وتحويلها إلى كتلة. هنا فقط تعرف كم هي هائلة، وهناك طريقة أخرى بأن نعرف حركتها وسرعة

حركتها وما يشدها، وبعملية حسابية نعرف بالضبط حجمها ووزنها أيضًا. وكما أن هناك جاذبية هائلة هناك قوى مضادة للجاذبية، ففي الكون مادة ومادة مضادة وجاذبية مضادة. وكانت نظريات تقول إن الكون ثابت منضبط كالساعة تمامًا، وجاءت نظريات تؤكد أن هذا خطأ، فالكون لا يخضع لقانون واحد، وإنما هناك عدة قوانين ونظم تحكم الكون أو الأكوان، أو بعبارة أخرى نحن نقول هنا على كوكب الأرض إن 2 + 2=4 ونتوهم أن هذه حقيقة مطلقة، ولكن علم الفلك الحديث يقول لنا إنها ليست حقيقة مطلقة، فإن هذه العملية البسيطة في أماكن أخرى من الكون تصبح خطأ، وكما أنه لا يوجد في الكون خط مستقيم وإنما كل شيء ينحني فكذلك لا توجد قواعد جامدة مطلقة، وإنما هناك مبدأ للاحتمال، وإذا كنا نستخدم كلمات مطلقة ومؤكد وحتمي وبديهي فهذه مفردات لا مكان لها في نظم كونية أخرى، ولم تعد كلمات: ربما أو يجوز أو محتمل دليلاً على العجز عن الفهم وإنما هي دليل على الفهم وعلى أن منطقنا ليس هو منطق الكون كله، وعقل الإنسان ليس هو عقل الله (سبحانه). أقول قولي هذا وأنا أقلب نظرية فلكية جديدة تقول: إننا لا نعرف بالضبط أن هذا الكون الذي يتسع وتزداد سرعته، هل هي البداية أم هل هي نهاية التمدد الكوني ليسرع الكون في الانكماش والتقلص والعودة إلى أن يصبح ذرة متناهية الصغر والكثافة وليبدأ انفجار آخر وبداية أخرى. **الله أعلم**.

مات الكلب ولا عزاء!

عندنا مثل شعبي يقول: الجنازة حارة والميت كلب، أي أن الجنازة لا تتناسب مع تفاهة الفقيد. وعندنا مثل آخر يقول: كلب السيد القاضي مات، مشيت الناس في جنازته.

ولكن المثل الشعبي صحيح، فأشهر جنازة في التاريخ هي جنازة الكلبة لايكا التي أطلقها الروس في أحد الأقمار لتدور حول الأرض، ولم يفلح الروس في استعادتها فقد ولدت في الأرض وماتت في السماء وحزنت عليها الملايين من محبي الحيوانات، ولما وجدت الكلبة أنه من الصعب على الملايين أن تمشي في جنازتها، راحت هي في نعشها تدور حول المشيعين!

والمثل صحيح، فقد مات كلبي منذ أيام، هل حزنت عليه؟ نعم، لقد بكيت؟ نعم، بكيت صديقًا لعبة تسلية، وهذا هو الكلب الخامس الذي يموت، وقد جعلت للكلاب اسمًا واحدًا، كأنني لا أريدها أن تموت، واحد ألقت به الخادمة من فوق، وواحد مات تحت عجلات إحدى السيارات، وواحد أكل طعامًا قد أعددناه للفئران، ثم هذا المسكين الذي داسته سيارة وراء سيارة.

وتكررت نفس المواقف الحزينة، فقد اعتدت أن أجده إلى جواري في الفراش وعند قدمي وأنا أقرأ وأكتب، فإن جاع التفت إليَّ، وإن عطش وإن أراد النزهة، وإذا اقتربت من البيت، ولا أعرف كيف ينبح قبل دقائق من وصولي إلى البيت. مات، وهذه المرة من الصعب أن آتي بكلب آخر وله نفس الاسم. فلم يمت أي كلب، وإنما هو كلب خاص له صفات خاصة، وهذه الصفات من الصعب أن نجدها أو نغرسها في كلب آخر.

وأستاذنا العقاد قد رثى كلبه «بيجو» حزنًا عليه، فقد رأى فيه كل الصفات التي يتمناها للناس، فقد كان الكلب حارسًا لهذه الصفات الحميدة.

والأستاذ طاهر الجبلاوي أحد تلامذة الأستاذ العقاد قد مات كلبه فرثاه العقاد في قصيدة طويلة.

وعندما مات كلب الأديب الأميركي مارك توينى في جزيرة هاواي لم يعرف أحد ذلك، فقد بكاه ودفنه، وامتنع عن الطعام، ثم فوجئ الناس بلافتة على باب البيت تقول: غدًا يتقبل مارك توينى العزاء في كلبه. أي ليس اليوم، وإنما غدًا، وإذا ذهب الناس في اليوم التالي وجدوا اللافتة تقول غدًا.. وغدًا لا يجيء.

فكأنه أعلن وفاة كلبه العزيز، وأعلن أنه لا يقبل فيه عزاء من أحد.

هل الحياة على الأرض أصلها فيروس؟!

أصيب الناس بالرعب في كل الدنيا بسبب الموت الطائر.. أو إنفلونزا الطيور التي قضت على ما يساوي ألوف الملايين من الدولارات. ولم يفلح الاحتياط الشديد في منعها - كيف نمنع الهواء الملوث! وقد أبيدت ملايين الطيور. ولكن الخوف قد اجتاح الناس الذين عندهم والذين ليس عندهم.. وامتنع الناس عن أكل الطيور. وارتفع سعر اللحوم. وامتنع الناس عن أكل اللحوم أيضًا!

وأعلنت الهيئات الطبية أن لا خوف على الإنسان من هذا الوباء.. وإنما الخوف فقط على الذين يعملون في خدمة الطيور.. والخوف عليهم من مخلفات هذه الطيور والعدوى تنتقل بسبب تناولها للطيور وإنما بسبب رائحة مخلفات الطيور، فلو أكل الإنسان دجاجة مصابة فلن يصاب، لأن المرض ينتقل عن طريق الأنف وليس عن طريق المعدة.

وبدأت بعض الحكومات تطمئن الناس بأن الوباء بدأ ينحسر. بل إن وزارة الصحة المصرية طمأنت الناس بأنه في شهر أو أكثر ينتهي هذا الوباء.. وفجأة أعلنت ألمانيا أن قطة في جزيرة رويجن النائية أصابتها الإنفلونزا فعاد الفزع من جديد، وأعلنت الحكومة الألمانية

أنه يجب حماية حيوانات وطيور الزينة – وأنه يجب إنقاذ القطط والكلاب والعصافير وحمايتها من الخروج إلى الشارع أو الاختلاط بأية حيوانات أخرى.. ثم أعلنت الحكومة الألمانية أنه مادام الوباء قد انتقل من الطيور إلى الحيوانات فإصابة الإنسان محتملة في أي وقت – وهذا هو الخطر الأعظم. والذي تواصى الأطباء البيطريون بإخفاء هذه الحقيقة حتى لايضاعفوا ويلات الناس؟ إذن فالخطر ما يزال قائمًا. فإذا انتقل إلى الإنسان فهو أشد أنواع الإنفلونزا فتكًا..

ومن هيئة الإذاعة البريطانية أعلن كبير علماء بريطانيا البروفسور دافيد كنج أن الإنفلونزا لن تختفي قبل خمس سنوات وربما أكثر. والسبب هو الطيور المهاجرة من بريطانيا وإليها كل سنة. ولابد من التعاون الدولي في مواجهة هذه المأساة.

وأعلنت السيدة مرجريت بيكت وزيرة البيئة في بريطانيا أن الوقاية من وباء الإنفلونزا أصبحت بعيدة الاحتمال.. وقررت أميركا وقف استيراد الطيور بكل أشكالها من العالم كله.

وكان الوزراء وأعضاء البرلمان والأطباء في كل الدنيا يقيمون الحفلات في كل مكان يأكلون الطيور.. ففي مصر نشر التليفزيون صورًا لوزراء وأعضاء البرلمان وهم يأكلون الدواجن مسلوقة ومشوية. المعنى أنه لاخوف منها. وعلى الناس أن يفعلوا مثلهم. ولكن بعد التحذيرات من ألمانيا ومن بريطانيا يجب أن يكف الوزراء وأعضاء البرلمان عن هذه المخاطر؛ فالهدف القادم أو الكامن للإنفلونزا هو بقية الحيوانات وفي مقدمتها الإنسان. لقد تحول

فيروس الإنفلونزا من قاتل للطيور، وبعد أن اكتسب قوة مضاعفة أصبح متربصًا بالإنسان!

وفي نفس الوقت أعلن علماء الفضاء بعد أن حللوا تربة النيازك ووجدوا آثارًا للحياة عليها أن الفيروس ربما كان هو الصورة الأولى للحياة، ثم تحول الفيروس إلى أشكال أخرى أكثر تعقيدًا وتطورًا في ألوف ملايين السنين!

عينا نفرتيتي وشكسبير لماذا؟!

لم نعرف إلا من عامين فقط كيف مات الملك الفرعوني توت عنخ آمون، فقد استراح الآثاريون إلى أن الكدمة الموجودة في الجمجمة هي نتيجة ضربة بآلة حادة قضت على الملك الصغير، ولكن أثبتت الأشعة والطب الشرعي الحديث أن الملك لم يمت مقتولا، وإنما لمضاعفات مرضية.

ولكن أحدًا منا لم يعرف ما هذه العلامة الحمراء على جبين أستاذنا العقاد، فأنا قد استدعيت لأراه في لحظاته الأخيرة، فوصلت من بيتي في الزمالك إلى بيته في مصر الجديدة في نصف ساعة أي بعد وفاته بعشر دقائق، ولا يمكن بسبب سقوطه من السرير، فالسرير يعلو على الأرض بأقل من نصف متر.

وبعد أربعة قرون من وفاة أمير الشعراء الإنجليزي شكسبير الذي توفي عام 1616، اكتشف العلماء أن عبقري الشعر قد توفي لأسباب أخرى، ولم يترك العلماء والباحثون شيئًا في حياة هذا الشاعر العظيم إلا ووجدوا له جوابًا – فهل هو الذي نظم شعره؟ قالوا شاعر آخر، وقالوا فيلسوف آخر، وتساءل بعض الباحثين إن كان شكسبير هذا قد وجد، أو أنه أسطورة؟ هل هو زوج، هل هو أب، هل كانت له عشيقات،

هل كان سويًا، لماذا يموت في هذه السن الصغيرة (52 عامًا) مثل نابليون وعبد الناصر؟ هل كان مريضًا، وما مرضه؟

اهتدى العلماء الألمان والأطباء الشرعيون إلى تفسير لغز العيون والدمل فوقها، موت شكسبير كان من شيء لم يخطر على البال، فقد قارنوا كل صور شكسبير وكل ما كتبه عنه معاصروه وكذلك قناع الموت، وإذا بالعلماء الألمان يلاحظون أن عينه اليسرى عليها كيس دهني صغير، وهذا الكيس ظهر في بعض الصور، واهتدى الألمان إلى أن الشاعر قد مات بسبب كيس سرطاني ظهر في العين اليسرى، وليس صحيحًا أنه مات بسبب الإفراط في الشراب والجنس في ليلته الأخيرة من حياته.

والملكة الفرعونية الجميلة نفرتيتي، صاحبة أجمل عنق وأجمل عينين وهي جميلة الجميلات في التاريخ القديم كله، أما سر نفرتيتي فإن عينها اليسرى لم تكن في مكانها، وإنما كانت إلى جوارها عندما عثروا على تمثالها وانفتح بذلك باب الاجتهادات في تفسير لغة هذه العين.

وقالوا إن الفنان لم يكد يضع العين في محجرها حتى هاجمه اللصوص فترك التمثال دون أن يكمله، وقيل إن اللصوص شرعوا في السرقة عندما هاجمهم لصوص آخرون، وقيل إنها بداية أسطورة جديدة، وهي أن الدنيا لا تساوي أن يراها الإنسان بعينين، وإنما واحدة تكفي. وقيل إنهم الفراعنة كان من آمالهم أن يخترعوا قطع غيار للجسم الإنساني، وبدأوا بالعين، وقيل إن الإنسان عندما يبعث حيًا، تكون العين هي آخر ما يظهر في جسمه، والملكة نفرتيتي حرة أن ترى العالم الآخر بعين أو باثنتين!

الملك فيصل والسلطان فؤاد: يعيش يعيش؟!

الزمن: مقياس الحركة

وهناك الزمن الميكانيكي أي الذي تسجله الساعة على الحائط أو في يدك، وهناك الزمن النفسي، تجلس إلى فتاة جميلة فيمضي الزمن بسرعة وإلى سيدة دميمة فيصاب الزمن بالشلل ويجرجر نفسه ولا ينتهي، ونحن طلبة كنا نرى محاضرة طه حسين قصيرة جدًا ومحاضرة أستاذ اللغة اللاتينية طويلة جدًا، مع أنهما متساويتان في الدقائق.

وكان الأستاذ العقاد في السجن يقول إن الزمن كالتراب نحاول أن نكنسه ولكنه لايذهب، وكان طه حسين يقول إن كلمات الوداع طويلة أو قصيرة حسب الذي نودعه، والزمن هو الزمن، وتقول أم كلثوم: «يطولوك يا ليل ويقصروك يا ليل»، حسب الحالة المزاجية لك ومع من تجلس. وفي المدن يعلقون الساعات في كل مكان لإحساسهم المستمر بالزمن، فالساعات في الآلات وفي الهاتفات، والزمان ضروري لضبط الحركة واستهلاك الوقود. وأصبحنا اليوم في زمن (الفيمتو) نتحدث عن واحد على ألف مليون من الثانية، وأن الذرات تتحرك في واحد على ألف مليون من المليمتر؟!

وفي أعماق الريف والغابات والأماكن المنعزلة لا يعرفون معنى للزمن، فلا شيء يتحرك ونهارهم كمسائهم، وقد نشرت الصحف البريطانية أنهم في الريف يتحدثون عن تشرشل الذي لا يزال يقاوم هتلر، ولولا ذلك لتساقطت الصواريخ فوقهم وتحتهم، مع أن ضرب هتلر لبريطانيا بالصواريخ قد انتهى منذ أكثر من سبعين عامًا!

وكنا في معرض الكتاب في فرانكفورت فسألت وزير الثقافة المصري فاروق حسني: ألم تعرف بعد لماذا استقبلنا الناس في الأقصر بالهتاف للملك فيصل، يعيش الملك فيصل؟!

فقال لى: هذا حدث، ونسيت أن أسأل عن معنى هذا الهتاف الغريب وعرفت فيما بعد أنه كان يمشي في الصفوف الأولى أحد السعوديين بملابسه الوطنية، ويقال إن بينه وبين الملك فيصل شبهًا، ولم يعرف الناس في مدينة الأقصر العالمية أن الملك قد مات.

وقال عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية ما أدهشنا، قال إنه كان في طريقه إلى طنطا، عندما حلَّ موعد صلاة الجمعة، فتوقف ليصلي في أقرب مسجد، وفي المسجد، وقف الخطيب يدعو للسلطان فؤاد بأن يؤيده الله بنصر من عنده وأن يرزقه الذرية الصالحة، والغريب أن الناس يقولون: اللهم آمين، ويعود الخطيب يدعو الله أن يؤيده ويبارك فيه، والناس يقولون آمين، مع أن الملك فؤاد قد مات من ثمانين عامًا، وجاء من بعده ابنه فاروق ومات، وجاء جمال عبد الناصر ومحمد نجيب والسادات وماتوا جميعًا، والناس بالقرب من مدينة طنطا لا يعرفون ذلك، فلا قرأوا ولا سمعوا إذاعة أو تليفزيونًا. إنهم خارج الزمن، خارج الأحداث والتاريخ، هل هذا ممكن، نعم لقد أمكن، ولا يزال!

كيف يستعدون للكتابة؟!

كل كاتب له طريقة في تهيئة نفسه للكتابة، أي اتخاذ الهيئة التي تجعله مستعدًا للكتابة. بعض الكتاب يمضي في الغرفة ويدور حول مكتبه، وبعضهم يمشي خارج المكتب.

بعضهم يكتب واقفًا مثل الأستاذ العقاد أو جالسًا إلى جوار المكتب بسبب آلام في المصران الغليظ. والشاعر الألماني جيته بسبب إصابته في العمود الفقري والمصران الغليظ.، وكذلك الأديب الأميركي همنجواي والأديبة فرجينيا وولف.

والروائي الفرنسي بلزاك يضع إلى جواره دلوًا من القهوة، والأديب د. هـ. لورانس يكتب عاريًا، والأديب الفرنسي فكتور هيجو يطلب من خادمه أن يأخذ معه كل الملابس التي قد يحتاج إليها ولا يعود إلا ليلاً لكي يكون هيجو عاريًا على راحته.

والأديب الفرنسي جوستاف فلوبير يرتدي ملابسه الأنيقة ويضيء كل مصابيح البيت فيظن الناس أنه أقام وليمة، ويفاجأ الجيران بأن أحدًا لم يحضر، وإنما هو الأديب يحتفي بنفسه لكي يكتب.

وكان السياسي والكاتب دزرائيلي يرتدي ملابس السهرة الرسمية ويضع الورود، ويقوم الخدم بإعداد الأطباق والأكواب والخمور ويتركونها للسيد دزرائيلي؛ فهم يعلمون أن كل هذا من أجل أن يدخل في الحالة النفسية المناسبة للكتابة!

وكان الشاعر الأميركي إدجار بو يضع قطًا على كتفه أثناء الكتابة. والأديب النرويجي أبسن كان يضع أمامه صورة للأديب سترندبرج وهو أعدى أعدائه، وكان يقول: إنما أردت أن أغيظه وهو يتفرج على إبداعي قبل نشره على الناس!

أما صديقي الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا فكان يكتب في الفراش لأنه أصيب بشلل الأطفال وهو صغير، وهو قد تعلم بعض اللغات الأوروبية في الفراش، وكانت زوجته الأديبة ألسه مورانته تضيق به، فكانت تدخل تحت السرير وتدق رجليه لتهز الآلة الكاتبة فلا يكتب!

ومن الغريب أن بعض الكتاب لا يكتبون إلا على ورق صغير في حجم مساحة الكف: العقاد وتوفيق الحكيم وإحسان عبد القدوس والتابعي وكامل الشناوي والشاعر إبراهيم ناجي، أما أمير الشعراء شوقي فكان يكتب على أي ورق يجده، حتى فوق علب الكبريت.

وفي ترجمة لحياة الأديب همنجواي يقول المؤلف: إن همنجواي عندما يتهيأ للكتابة فإنه يكتب بالقلم الرصاص وقد يمضي الليل كله يبري الأقلام حتى تصبح مثل نشارة الخشب ثم لا يكتب، وينام، وفجأة يقوم يكتب وكأنه قد حفظ ذلك في نومه!

كيف لا أكون وجوديًّا؟!

مدرسة العالم النفسي الكبير فرويد ترى أن كل متاعب الإنسان قد بدأت في الطفولة، فالطفولة كنز لا يفنى، أنا أحد المؤمنين بهذه النظرية، وقد جربتها وطبقتها فكان أكثر من عشرين كتابًا من مؤلفاتي، آخر هذه الكتب كتاب عنوانه «البقية في حياتي.. لوحات تذكارية على جدران الطفولة»، وقد وجدت أن الكثير من الذي عانيته رجلاً قد بدأ في طفولتي وامتد إلى بقية حياتي، والأمثلة كثيرة.

فقد لاحظت أن اتجاهي إلى الفلسفة الوجودية غريب، وإلى نوع من الوجودية، فنحن طلبة الفلسفة انقسمنا: شيوعيين وإخوانًا مسلمين ووجودين، وكان أستاذنا هو الدكتور عبد الرحمن بدوي، وهو الذي قدم لنا الفلسفات الوجودية الألمانية والفرنسية والروسية والإسلامية أيضًا عند الصوفية. وأول كتاب عن الوجودية باللغة العربية السهلة كان كتابي سنة 1951 وعنوانه «الوجودية»: وهذا الكتاب قد طبع أربع مرات في شهر واحد، ونفدت نسخه مائة الألف، ولابد أن يكون السبب هو أن الموضوع على لسان الناس، وأنه جاء في عبارة سهلة.

ولكن لماذا الوجودية؟ فقد كانت طفولتي شديدة القلق، وكنت أقيم في الريف، وكان والدي يتنقل من مكان إلى مكان مديرًا لزراعة عدلي

باشا يكن ثم عز الدين بك يكن ثم نعمت هانم يكن. هو يتحرك ونحن وراءه، وكنت وحدي مع أمي، وأمي هي مصدري للعلم والحكمة، وما تقوله قانون، ولم أعرف إلا في سن متأخرة أنه يمكن مناقشة قوانين أمي والاعتراض واختيار سبل أخرى للمعرفة. والصورة هكذا: أنا وحدي وقد انكفأت على القراءة، وليس لي أصدقاء ولا زملاء، فأنا تلميذ متفوق والزملاء لا يحبونني ولا يلعبون معي، وأنا أجلس في الفصل في الصف الأول، فإذا سأل المدرس كنت أول من يرفع يده لكي يجيب.

وكان من نتيجة هذه العزلة أو هذه الوحدة شعوري بالغربة والاغتراب، والحرص على ذلك، ولم يحدث أن قلت: شارعنا بيتنا، أقاربي، أصحابي، وإنما أقول: الشارع، البيت، الزملاء، فليس لي شيء في أحد أو عند أحد، وأحسست أن المثل الإغريقي القديم على مقاسي: المثل يقول: الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب، فأنا هذا الحجر ولم تنبت على هذا الحجر الدائر الدائخ: لا صداقة ولا مودة ولا قرابة ولا أخوة، وظل الكثير من المشاعر الإنسانية العادية نوعًا من الترف، وفي إحدى المرات بكيت على نفسي فقد وجدتني أجلس في سيارة يطير الغبار وراءها ليلا، وقد وضعت ساعة الحائط على حجري، وملابسي وكتبي إلى جواري، وأحسست أنني حانوتي وأن الزمن مات وهو في نعش والنعش على ركبتي، وكلنا في قبر الليل، أو وحدي في قبر من الليل والوحدة والغربة. وكلها مفردات، وعتبات الطريق الذي يفضي إلى الوجودية، أو هو الطريق الملكي لأن أكون وجوديًّا، وكنت، وعجز الزمن أن يزحزح أو يحرك أو يلغي شعوري بأنني غريب في أرض غريبة، وكما أنني ولدت وحيدًا وعشت وحيدًا، فالنهاية أيضًا!

رحم الله الموسيقار والمطربة وست الحبايب!

والدموع في عيني في كل مرة أستمع إلى أغنية «ست الحبايب» لفايزة أحمد تلحين الموسيقار محمد عبد الوهاب، وهي الآن تتردد في كل أذن وكل عين بمناسبة عيد الأم، ولي معها ذكريات – مع الأغنية ومع فايزة أحمد.

في يوم وجدت على مكتبي مذكرة من سكرتيري يقول: الأستاذ عبد الوهاب سأل عليك ثلاث مرات، ويقول: لابد من الاتصال به لأمر مهم جدًّا!

أما الأمر المهم جدًّا، فهو أن عبد الوهاب يريدني أن أستمع إلى تسجيل أغنية «ست الحبايب» في ساعة مبكرة من صباح الغد، أسعدني ذلك، ومن الذي لا يبادر إلى سماع فايزة أحمد وعبد الوهاب، وذهبت إليه في البيت وقد لفَّ حول رأسه كوفية وارتدى بالطو ثقيلا ووضع يده على فمه حتى لايدخل الهواء أو حتى لا تخرج الكلمات، وكان يشير بإحدى يديه أو برأسه أن نمضي بسرعة، ورغم أن السيارة مغلقة النوافذ فقد التزم الصمت تمامًا وراح يدندن، وإذا كان عبد الوهاب يدندن فليس معنى ذلك أنه قد وضع بينك وبينه حاجزًا للصوت، فلا يسمعك ولكنه قادر على متابعة أي حديث، كأن عبد الوهاب شخصان، واحد يدندن والثاني يتابع كل ما يدور حوله.

ووصلنا إلى الاستديو وقد سبقتنا فايزة أحمد والفرقة الموسيقية أيضًا، ودخل عبد الوهاب إلى الاستديو وتحول إلى شخص ثالث شديد القلق بالغ الحساسية، ونظر إلى الفرقة الموسيقية من نافذة الاستديو، ورفع يديه لقراءة الفاتحة، كما هي عادته عند أي تسجيل، وارتفعت أيدينا أيضًا، وبسرعة انتظمت الفرقة الموسيقية تتقدمها فايزة أحمد، وبدأت الموسيقى، الله ومضت الموسيقى وتهيأنا لسماع فايزة، الله يا أستاذ، وإذا بالأستاذ يصرخ بأعلى صوته: يا بنت الـ... يلعن، يا بنت الـ ... ماهذا؟ إن الأستاذ يشتم فايزة أحمد؟! ولم نتصور لحظة أن الكنز الذهبي لأجمل الألحان يحتوي على أبشع الكلمات النابية البذيئة، أما وجه عبد الوهاب فقد تغيَّر وامتقع، وانفتح باب الاستديو وخرج عبد الوهاب، ونحن لا نفهم، ولكن عبد الوهاب اتجه إلى فايزة وأكمل شتائمه، وهو يقول لها: أنا قلت لا تسهري، يلعن ويلعن، وركب سيارة أخرى.

وعرفت من فايزة أنها سهرت وغنت أيضًا، فلاحظ عبد الوهاب أن صوتها قد هبط درجة، وبعد شهور أعيد التسجيل الذي نامت له فايزة أحمد ولا أكلت ولا شربت ولا غنت، فكانت هذه التحفة البكائية.

رحم الله الموسيقار والمطربة وست الحبايب.

إنما أردت أن أقول!

أي أنه كان في نيتي أن أقول شيئًا آخر غير الذي فهمه القراء. أي أن القراء لم يفهموا ما قصدت، ولكن لماذا؟ إما أن يكون الموضوع غامضًا صعبًا، وأنا لم أحسن الإحاطة به والتعبير عنه، وإما أن يكون الموضوع واضحًا سهلا، وأنا رغم ذلك باعدت بين أوله وآخره، فكان غامضًا. والعيب في الكاتب وليس في القارئ.

أي أردت أن أقول إنني كنت محظوظًا فقد شهدت ميلاد عدد من الأدباء، فقد عايشت أول أعمالهم الأدبية، وكتبت عنها وفرحت بها، وقد حدث في خمسينيات القرن الماضي، والعالم ينتظر الموهبة والمعجزة ومصابيح الهداية في عالم ما بعد الانهيارات الفلسفية والسياسية، ولأن الناس ينتظرون الموهبة والمعجزة، فقد تعجلوهما. واخترعوا مواهب مزيفة، وظهر من بينهم أنبياء كاذبون وآلهة مخرفون، ولكن الناس ينتظرون دائمًا وعندهم استعداد لذلك، وظهرت في فرنسا شاعرة عمرها خمس سنوات، واهتزت الأوساط الدينية والأدبية، ثم ظهرت أديبة فرنسا فرنسواز ساجان.

وظهرت أديبات شابات أخريات أسعدننا في سورية ولبنان ومصر، وانفتحت النوافذ على نسيم عليل وعطر جديد، وعلى صرخات

وثـورات، وعـلـى أدب لـه أظـافـر طـويـلـة تمزق الحب والشر والحيـاء وتخريش الرجل المانح المانـع لحريـة المرأة، وكنت هنـاك.

وعايشت الأديبة المصرية التي انتحرت، عنايات الزيات، ونشرت لها وانتظرتها وقالت ولم تكمل، فقد قررت أنه لاشيء يساوي لاهي ولا حياتها ولا أسرتها ولا أولادها.

وساعدت على ميلاد وانتعاش أديبة إيطالية هي سينا روصنم، وهي أقربهم لي وأكثرهم ارتباطًا وحزنًا، وطباعها أيضًا.

وفجأة وبلا مقدمات ظهرت أديبة طبيبة سعودية جاهزة هي د. سعاد جابر، لقد تدربت طويلا على القول فكشفت عن منجم من المعاني الجميلة الأليمة البليغة.. فكانت عباراتها حبات من اللؤلؤ والماس.. وهي في الحقيقة دموع استطاعت بالصبر وبالعقل أن تجعل لها شكلا وأن تجعل الشكل عقدًا حول عنقها أو قلمها أو أن تزف نفسها عروسًا للأدب العربي الحديث.

إنما أردت أن أقول إن الذي وهبنا مثل هذه الثريات البديعة الجريئة الحرة، لقادر على أن يجود علينا بمزيد منهن – آمين!

الصمت والحب: يا ولداه

ذهبت مع الصحافي الفلسطيني ناصر النشاشيبي إلى السيدة وجدان البربري صاحبة أكبر مزرعة خيول في مصر، وفي بيتها كانت النجمة الجديدة نادية لطفي وصديقتها عنايات الزيات، وكانتا تتحدثان بالألمانية سرًا، ولما عرفتا أنني أيضًا أتكلم الألمانية صار كلامنا عامًا، وانتهى العشاء، وجاءتني عنايات الزيات، فأبوها وكيل كلية الآداب عندما كنت طالبًا، لها اهتمامات أدبية، وأخرجت من حقيبتها قصة قصيرة أعجبتني نشرتها، وقصة أخرى أعجبتني جدًا نشرتها، والذي لم يعجبني أن لديها شعورًا بالضياع باللاجدوى.. باللامعنى، بأن الحياة عبث، وأننا عبث يعيش على العبث، عجيبة؟! سألتها فأعطتني قصة قصيرة عنوانها: نكتب بالتراب على التراب!

أنظر إليها، أطيل النظر، سمراء كلها حيوية، في عينيها بريق، في شفتيها إصرار، وأنثى مصرية. بعد ذلك اختفت لتعود ومعها مشروع رواية، والرواية مكتوبة بالقلم الرصاص، كأنها مكتوبة بالتراب أيضًا، تركتها عندي أيامًا، واقترحت عليها تعديلاً بأن تجعل أولها آخرها، واقترحت أن تعطي فرصة لأبطالها أن يقولوا، ولا تحشر نفسها على ألسنتهم وفي آذانهم وتعترض طريقهم إلى النهاية.

ولكن يبدو أنها استكثرت على أبطالها الحرية التي لاتجدها، قلت لها: لو أنا الذي كتب هذه القصة لقلت كذا وحذفت كذا وأضفت كذا، ولكن لا تفعلي شيئًا مما أقول، فأنا لست أنت، ولا أنت أنا، وفستانك لا يصلح بدلة، وبدلتي لا تصلح مايوهًا. وسافرت إلى اليمن ضمن وفد الأدباء (نجيب محفوظ ويوسف السباعي والشاعرين محمود حسن إسماعيل وصالح جودت وعميد الآداب د. مهدي علام) وكانت لنا أيام وحكايات، ولم أكد أصل إلى السويس حتى عرفت أنها انتحرت، ماتت.

اتصلت بنادية لطفي أكدت لى الخبر، وكنت أعلم أنها ليست على وفاق مع زوجها الطيار، وهي حكاية كل موهبة شديدة الحساسية، وتحدثنا في الانتحار، وكان من رأيها أنه ليس حلاً، وأن هناك حلولاً أخرى على الورق.. وأن وأن. وعدت أتصل بأسرتها يرحمها الله، وعدت إلى روايتها «الصمت والحب» ووقفت عند السطور التي كنت قد اعترضت عليها، إذن هي قررت وتركتني أقول وأعيد وأزيد، لقد صدر قرارها حكمها بالموت، فلا توجد وسيلة للقضاء على دنيانا إلا بالقضاء على أنفسنا، ولم تصدقني أن لديها الكثير الجميل الذي تستطيع أن تقوله، ولكنها قررت أنه لا كلام بعد اليوم ولا رأي ولا قول ولا معنى ولا فائدة من حياة العبث ورفضها في ساعتها لحظتها، وقالت للدنيا ولنا: لا.

وعدت إلى مشروعات قصص وحكايات لم تكملها، ولم أجد معنى لنشرها، فقد توقفت عن الكلام، أوقفت نفسها على الكلام بالقوة ففقأت عينيها وأذنيها وحطمت شفتيها وكسرت قلمها ووضعت نقطة في نهاية السطر، صفرًا في نهاية حياة لاتساوي صفرًا، مع الأسف اختفت وهي لا تعلم!

وكان نوم الرئيس على الأرض عميقًا!

كان الرئيس السادات يقول إن السياسي الجيد هو الذي عنده إحساس بالتاريخ، أو إحساسٌ بأن له دورًا في التاريخ، والذي يستطيع أيضًا أن ينام بسهولة، وكان يقول عن الرئيس عبد الناصر: إنه مسكين شديد التوتر، أمامه عدد كبير من الهواتف يتابع بها الأحداث في مصر وخارجها، ويظل طول النهار يشرب القهوة، وفي الليل يتعاطى المنومات. ولكن السادات كان يجلس تحت الأشجار وبعيدًا عن الضوضاء التي تلوث الأذن وتشوش على العقل أيضًا.

وكنت أقول إن الفرق بين عبد الناصر والسادات ومبارك، هو أن عبد الناصر يجلس وراء مكتبه دائمًا، ومبارك يجلس أمام مكتبه، وأن السادات يجلس خارج المكتب، أي أن السادات أقلهم توترًا. وفي إحدى رحلات السادات إلى غرب إفريقيا، نزلت الأمطار فلم تستطع طائرة الرئيس أن تتحرك ولم يكن المطار مزودًا بآلات تدفع الطائرة أو تسحبها لتقف على الممر، ولذلك كان لابد من أن تجيء طائرة أخرى. وجاءت طائرة بلا كماليات ولا صالون مخصص للرئيس وتحركت الطائرة ليلا. وفوجئنا بأن الرئيس السادات نام على الأرض، مخدة تحت رأسه وغطاء وتمدد ونام بهدوء وبعمق، وقد أعطى تعليماته بألا

تـتـوقـف الحركـة فـي الطـائرة ذهـابـاً وإيـابـًا من طـاقـم الطـائرة إلى الركاب، وكلهم صحافيون وإعلاميون، وإلى دورة المياه أيضًا، فكنا نروح ونجيء من دون أن نصطدم بجسم الرئيس!

والغريب أن الرئيس السادات نام على جانب واحد ولم يتقلب على هذه الأرض الجافة، ولا نحن توقفنا ولا طاقم الطائرة، ولما صحا الرئيس لم يعلق على ما حدث كأنه شيء عاديٌ جدًّا، شيء غريب!

ومنذ أيام نشرت الصحف أن وزيرة خارجية أميركا كونداليزا رايس تركت مكانها لضيفها وزير الخارجية البريطاني سترو، ونامت هي على الأرض، ونام هو في فراشها الوثير، ونشرت الصحف هذه القصة دليلا على المحبة والمودة التي تولدت بينهما، وكان نومها على الأرض، في زيارتها المفاجئة إلى العراق، امتنانًا لاستضافتها والحفاوة بها في بريطانيا.

ويقال إن العسكريين اعتادوا أن يناموا في أي وقت وبأي وضع، لأنـهـم لا يعرفون فـي أي وقت سينـامـون بـعد ذلك، فـعليـهـم انـتـهـاز الفرصة، وأن يتناولوا أي طعام يجدونه، لأنهم لايعرفون متى يجدون طعـامًـا بـعد ذلك. وأذكر حـادثـة لرئيس إسرائيل عـيـزرا فـايتسمـان، دعاني إلى الغداء في بيته في مدينة قيصرية، وفوجئنا به قد أعد لنفسه طعامًا وانتحى جانبًا وأخذ يأكل، عندها جاءت زوجته ونهرته على ذلك، فاعتذر لنا قائلا: إنهم علموه في الجيش إذا وجد طعامًا أن يأكل ومقعدًا أن ينام!

عشت في جلابيب كثيرة!

نعم، ولم يكن الهدف أن أتوارى أو أتنكر لأحد أو أنكر نفسي، ولكن جاء حين من الدهر كان لابد أن أكتب كثيرًا في وقت واحد، فكان من الصعب أن أكون رئيس التحرير لمجلة من المجلات وأكتب ثلاث أو أربع مقالات بإمضائي، ولذلك لجأت إلى أسماء مستعارة كثيرة.

فإذا كتبت مقالا صحافيًّا كان التوقيع: شريف شريف، وإذا كان عن الأزياء كان التوقيع: أحلام شريف، وإذا كان عن الرشاقة كان التوقيع: منى جعفر، وإذا تعرضت للمشاكل النفسية وحلولها كان التوقيع: هالة أحمد. وعندما كنت أعمل في مجلة «روزاليوسف» كان التوقيع هو: سيلفانا مارييللي، والاسم حقيقي لصديقة في باريس، وقد تخصصت سيلفانا مارييللي في أخبار الملك فاروق تتابعه أينما ذهب، فقط أخبار الملك فاروق في المطاعم والكباريهات وأخبار الراقصة المصرية سامية جمال، وأنا الذي أطلقت عليها لقب راقصة مصر الرسمية، وقد عاتبتني يرحمها الله بعد أن اعتزلت الرقص. وعندما أصدر الزميل الراحل حلمي سلام كتابًا عن (حرية الصحافة) في العهد الملكي ذكر كل ما نشرته «روز اليوسف» بقلم سيلفانا مارييللي دليلاً على مساحة الحرية.

وعندما هاجم د. لويس عوض الصحافيين الشبان اختار سيلفانا مارييللي التي ترجمت حوارًا بين الأديب الكبير ألبرتو مورافيا والنجمة الإيطالية صوفيا لورين، ووضعت توقيعها على هذا الحديث، فالحديث لمورافيا وكانت سيلفانا قد ترجمته ونسبته لنفسها!

ثم تركت العمل في «روز اليوسف» إلى «أخبار اليوم» لخلاف بيني وبين صاحبتها السيدة روز اليوسف بسبب أنني هاجمت ابنها إحسان عبد القدوس الذي صار أعز أصدقائي، وهو الذي قدمني للصحافة في «روز اليوسف» وفي مجلة «الاثنين» وقال: ترقبوا هذا الشاب إنه العقاد وطه حسين وعبد الرحمن بدوي وسارتر! وخشيت أن يستخدم أحد اسم سيلفانا ماريللي فكتبت عن حادث مصرعها في أحد شوارع باريس، يعني ماتت! وكانَ ذلك آخر جلباب أرتديه في حياتي الصحافية، ولكن يبدو أن التخفي والتحرر مني تحت أسماء أخرى لم ينته، فقد ظهرت في حياتي فتاة أخرى، ولم أجد لها اسمًا أحسن من «سينا»، وكنت قد نسيت هذا الاسم، وعندما التقيت بالفنان الكبير يوسف شعبان في الكويت العام الماضي ذكرني بما نسيت، قال لي: أنت هاجمتني من أربعين سنة هجومًا عنيفًا، وكان السبب (سينا) ابنتي من بنت الإمبراطورة فوزية!

وكنت قد نسيت، ولم أشأ أن أسأله ولماذا كان الهجوم، وعدت إلى الأرشيف وقرأت مقالي، وكان على حق، وبقي الاسم على قلمي أكتب وأنشر وأترجم أفكار «سينا» ويعاودني الحنين إليها وإلى أن أكون مرة أخرى في جلابيب الآخرين!

أيها الخائن.. عفوًا فأنت بريء!

الكتاب المقدس يحكي لنا أن أحد الحواريين للسيد المسيح عليه السلام قد خانه. باعه بثلاثين قطعة من الفضة. ولما تنبه ضميره أعاد الفلوس إلى الحاخامات ثم انتحر سنة 30 أو 32 ميلادية!

وكل الأناجيل تؤكد أنه يهوذا الأسخريوطي نموذج لهذه الخيانة.

فاليهود اشتكوا من المسيح الذي ادعى أنه ملك اليهود، ولكنهم لا يعرفون شكله، فتطوع يهوذا وقال إنه مستعد أن يدلهم عليه مقابل مبلغ من المال، وقال لهم إنه الشخص الذي سوف يعانقه ويقبله – قبلة يهوذا الشهيرة، أي قبلة الخيانة!

وفجأة ظهر له إنجيل – إنجيل يهوذا– أنكره المسيحيون سنة 180 ميلادية في مدينة ليون الفرنسية.. ومنذ ستين عامًا ظهر إنجيل يهوذا أو الإنجيل المفقود في مدينة المنيا بمصر وانتقل الصندوق الذي يحتوي على لفائف هذا الإنجيل من مصر إلى سويسرا إلى أمريكا. فقد اشترته سيدة سويسرية بمبلغ 30 ألف دولار.. وبقي في أحد البنوك 16 عامًا. ثم ظهر في مزاد واشترته هيئة «ناشيونال جيوجرافيك» وتولى عدد من العلماء المتخصصين في اللغة القبطية فك طلاسم هذه

المخطوطة النادرة.. فالمخطوطة قد ترجمت من اللغة اليونانية القديمة. وأعلنت «ناشيونال جيوجرافيك» أنها سوف تنشره.. وقد نشرته، وأنها بعد ذلك سوف تعيده إلى مصر ليعرضه المتحف القبطي.

وإنجيل يهوذا ينصف يهوذا ويتحدث عنه كأعز أصدقاء وأحباء المسيح، فالمسيح عليه السلام يعلم أن يهوذا سوف يخونه بل إنه هو الذي تعجل هذه الخيانة، لأنه يريد أن يرتفع إلى ملكوت الرب إذا تخلص من جسمه.. فهو – إذن – الذي طلب إلى يهوذا أن يفعل ذلك.. فليس خائنًا. وإنما إحدى أصابع القدر.. ولا حرية له.

والآن جاء دور يهوذا الأسخريوطي وغدا دور القاضي الروماني بيلاطس البنطي. ومن الغريب أن الفاتيكان قد حكم بتكفير الكاتب الكبير جيوفاني بابيني الذي أصدر مسرحية اسمها «غواية الشيطان» للإنسان. يطالب فيها بالعفو عن الشيطان، لأن رحمة الله لن تضيق بأحد أو عن أحد.. وقد ترجمت هذه المسرحية إلى العربية.. وكما عفا الفاتيكان عن عدد كبير من الأدباء والفلاسفة العظماء والعلماء، فلماذا لا يكون العفو شاملا كاملا – يشملني مثلا. فلم يسامحني الفاتيكان عندما كتبت مقالا طويلا عن اليهود بعنوان: لاصلبوا المسيح ولا قتلوا كيندي!

عروس تفتك بالأطفال!

كنا نضحك كلما ذكرنا ما حدث في سويسرا، كان لي قريب يعمل قنصلاً عامًا في برن، واستأذن البوليس في أن يقيم حفلة بها موسيقى حتى الحادية عشرة، ووافق البوليس واشترط أن يكون الصوت مسموعًا داخل البيت فقط، وجاء الضيوف وأكلوا وشربوا وضحكنا، وكنا سعداء بالمقارنات التي يحب الدبلوماسيون أن يحكوها عن أبناء أوروبا وإفريقيا، عادات الشعوب وطعامهم وشرابهم وحفلات الزفاف والجنازات.

وفي الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق جاء البوليس، لأنه تلقى مكالمة هاتفية تقول إن القنصل العام المصري تجاوز الموعد المحدد، ولذلك تنبعث من بيته الموسيقى مخالفًا بذلك القانون. وعرف القنصل العام أن الذي اشتكاه هو أحد الضيوف، أي أن هذا الضيف أكل وشرب وقال وقلنا له، ولم يكد يصل إلى بيته في نفس العمارة حتى وجد أن القنصل خالف القانون، وهذا ما لا يمكن السكوت عنه، واندهشنا، ولكنه رجل حريص على القانون وعلى راحة الناس، والتقينا به ولم يعتذر، وإنما كلامه معناه أن القانون قانون، وضحكنا واندهشنا وما زلنا!

ومـا رأيك فـي هـذه الحكـايـة مـن مصـر؟ دعـانـي صـديـق لحضـور افتتـاح مصنـع للحلويـات، فذهبت. الأجهزة حديثة، والنظافة والنظام والانضبـاط، كأن المصنـع في أوروبـا، هذا مـا قلنـاه جميعًا، وكتبنـاه فـي دفتر الـزيـارات تمهيدًا لنشره فـي الصـحـف إعلانـًا عن المصنـع الجديد. ولما عدت إلى البيت قامت في داخلي مشكلة، وهـي أن المصنع يستخدم اللون الأحمر لبعض الحلويات بكثافة، والكثير من هذا اللون يسبب السرطان، أي نسبة الاحمرار تخالف القياسات الدولية، وهذا ممنوع، وقد سألت فقيل لي إن اللون زائد قليلاً ولكن لا خوف منه، غير أنني لا أرى ذلك.

وطلبت وزير الصحة وأبلغته أن مصنعًا جديدًا أسرف في استخدام الألوان التي تؤدي إلى السرطان، ونسيت تمامـا أن صـاحب المصنع صديقي، نسيت والله نسيت، وكل الذي خطر لي وأفزعني هو الأطفال الصغار الذين سوف يصابون بالسرطان، تمامًا كما يحدث لهم عندما يأكلون عروس مولد النبي التي تبـاع بالملايين في كل المدن والريف المصري. وأحسست كأن الإبلاغ عن هذا المصنع اعتذار للرجل الذي سخرنا منه لأنه أبلغ السلطات عن الحفلة التي كان ضيفًا عليها، كأنني لا شعوريًّا أردت أن أقول إنه على حق، كما أنني، فالقانون هو القانون، وأغلقوا المصنع وصاحبه لايعرف من الذي استعدى عليه القانون.. ما رأيك؟!

وعد أخاه بقتل أي مصري؟

مايسترو مصري يقود فرقة موسيقية في إسرائيل، السبب: حدث ثقافي خدمة لأهدافنا السياسية، هذا ما نقوله نحن المصريين، ولكن بعض العازفين من اليهود لهم سلوك آخر. أنا لم ألاحظ شيئًا أثناء العزف، وإنما كانت لي ملاحظات لا أهمية لها، فلست موسيقيًّا، مثلا: كنت أتمنى أن يكون المايسترو المصري قد ارتدى بدلة أفضل، كنت أتمنى أن يلتفت المايسترو إلى الجمهور الكبير وينحني أكثر وأطول. هذه هي الأصول، كنت أتمنى أن أجلس في مكان آخر، فجارتي لا تتوقف عن الهمس واللمس، لا مانع من اللمس ولكن همسها لا هو زقزقة العصافير ولا هو صوت البلابل، فالسجائر أوشكت أن تسد حلقها، ثم إنني غير قادر على متابعة عصا المايسترو، ولم ألاحظ أن بعض العازفين عازفون عن الانصياع للمايسترو المصري، لم ألاحظ ذلك، ولكن الهمهمة تؤكد أن هناك شيئًا ما لا أعرفه، وأن كارثة توشك أن تقع، ولا أعرف إذا وقعت ما الذي نفعله هنا، وما الذي سوف نقوله هناك في القاهرة.

نظرت؛ فإذا السفير الإسرائيلي السابق قريب مني، هز رأسه بأن كل شيء سوف يكون أحسن حالاً، لم أفهم. نظرت أمامي، وجدت أن

عازف البيانو شاب صغير، وهو لا يستوي على مقعده، بل إنه يكاد يقتلع مقعده ويهرب من الأوركسترا، حاولت أن أفهم، جاءني و همس في أذني بما معناه أن هذا العازف الشاب لايطيق أن يقوده مايسترو مصري، وهم يحاولون إقناعه بأنه لابد أن يطيع الأوامر وألايكون نشازًا في هذا اليوم الوطني؛ يوم تطبيع المايسترو المصري مع عازفي إسرائيل.

وتساءلت: ولكن لماذا هذا العازف بالذات، ولماذا بقية العازفين في انسجام تام؟! قالوا إن له أخًا قد قتل في حرب 73، وإنه كان أستاذه في العزف على البيانو، وإن أخاه وهو يموت قد أوصاه بأن ينتقم، فأقسم أن يكون فداؤه أول مصري يراه في أي مكان، وكان هذا هو المكان والفرصة النادرة.

وعند نهاية الحفلة ذهبت إليه وقلت له: أنا مصري، فسألني بسرعة: ضابط؟ قلت: ولا جندي.

وبكى عازف البيانو الشاب على الفرصة التي ضاعت، وطيبنا خاطره ووعدناه بتدبير مصري شهيد في أقرب فرصة!

وهربت ومازلت خائفًا!

عشرون عـامًـا مضت علـى انفجـار المفـاعل الـنووي فـي مديـنـة تشيرنوبل شمـال أوكرانيـا، وبـالقرب من حدود روسيـا البيضـاء، ولولا أن المراصد الفلكيـة فـي السويد هـي الـتي أعلنت عن هذا الانفجـار لظل سرًّا لا تعلنه روسيـا، ثم أعلنت أخبـار الانفجـارات المتواليـة في المفـاعل القديم، وفي لحظات انتشرت المواد المشعة وتساقط التراب الذري ومـات مئـات الألوف من الإنسان والحيوان والنبـات أيضًـا.

أخطر من ذلك أنه بعد سنة من الانفجـار المروع أجدبت الأرض من الزرع والميـاه من الأسمـاك والسمـاء من الطيور، وبعد سنة ظهرت النبـاتـات مشوهـة الأوراق والزهور، وكذلك الطيور لهـا أشكـال وألوان غير مـعـروفـة، وكـذلك الأطفـال لـهـم رءوس الحيـوانـات وسيـقـان الحيوانـات، فـالذي مـات استراح وأراح، والذي لم يمت أوجع وأبكى.

وابتعد النـاس بـالملايين عن منـاطق الخطر الذي لايزال يـهدد المـاء والـهواء والتربـة، ولكن الحيـاة أقوى من الموت، فعـاد كبـار السن إلى المنـاطق الخطرة، فقد أعـلـن الـعلمـاء أن الشيـوخ أقـدر علـى مقـاومـة التشويـهـات الذرية وعـادوا وعـاشوا ولايزالون.

وذهبت إلى أوكرانيا من خمس سنوات واستمعت إلى ما روعني، وتمنيت أن أظل بعيدًا، وانشغلت بحال أوكرانيا التي غيرت جلدها من الشيوعية إلى الرأسمالية، رأسمالية الدولة والرأسمالية الوطنية، وكيف تحولت مصانع الصواريخ إلى مصانع للجرارات الزراعية، ورأيت وسمعت عن الرئيس الأوكراني كوتشيما، كيف استطاعت أوكرانيا أن تفلت من قبضة الشيوعية، وسمعت قصصًا للفساد والانحلال هي من نتائج السوق المفتوحة الحرة، وكيف أنه من الصعب أن يكون الشيوعي رأسماليًّا دون إفساد وفساد، وقد أشارت كل الأصابع إلى الرئيس وبطانته.

وكان من نصيبي أن أسكن في فيلا وسط غابة، الغابة جميلة، ولما جاء الليل تولاني الرعب، فالليل درجات من الظلام، السماء السوداء والأشجار والظلال وأصوات غريبة في الليل، لا أعرف كيف أسميها، وبرودة الليل، وحدي وسط هذا الرعب، وكل شيء بعيد جدًّا، لا أعرف أين ذهب الحراس والخدم، ولا يوجد هاتف. وفي حوار مع نفسي قلت: لابد أن تجد شيئًا من المتعة في كل هذا، لابد أن تجد ما ترى وما تسمع لكي تكتب وتحكي. ومع ابتسامة البنات الحلوة والزهور البرية والشاي الدافئ والزبد والحكايات التي سمعتها بلغة فرنسية مكسرة وألمانية مدشدشة. سألت: أين نحن من تشيرنوبل؟ فقالت: حوالي مائة كيلومتر. قلت: يانهار أسود، يعني في قلب الخطر النووي، يعني من 24 ساعة يمكن تحويلي من إنسان إلى قرد إلى حشرة. قالت: ليست خطرة إلى هذه الدرجة، ولكن تناقصت خطورتها. ولم تكمل عبارتها، وجمعت حاجياتي، وقفزت في السيارة لأعود إلى العاصمة وقد تشبعت بكل أنواع الإشعاعات، ولا يبقى إلا أن أنتظر التحول المخيف في جسمي وعقلي، وأحمد الله أن شيئًا من ذلك لم يحدث بعد

تهون الأرض إلا (طابا)!

هناك خلافات طويلة بين الدنمرك وكندا على جزيرة مساحتها كيلومتر مربع تقع في القطب الشمالي شمال جرينلاند. الجزيرة اسمها هانز، وهذه الجزيرة هي مصطبة جليدية ليس فيها حياة: لا حيوان ولا نبات ولا بنو آدم، فلا هي مكسب للدنمرك ولا هي خسارة لكندا، ولكنها كتلة جليدية دنمركية، ويجب أن يقف عليها علم الدنمرك عاليًا شامخًا وحيدًا لأنه رمز السيادة والكرامة والاحترام!

وكانت عندنا نحن أيضًا تجربة: طابا، وكان النزاع بيننا وبين إسرائيل وكنا لا نعرف طابا هذه، وكثير من الناس تصور أن طابا مساحتها ألف كيلو متر مربع، وقالوا بل مائتان، وقيل بل خمسون، والحقيقة أنها لا تزيد عن كيلو متر واحد، وهي مساحة من الكرامة والسيادة ولو كانت أقل من ذلك فهي أرضنا.

وأذكر أنني أجريت حديثًا مع شيمعون بيريس رئيس وزراء إسرائيل، وكان من رأيه أن نتصالح، ويا دار ما دخلك شر، ولا داعي للقضاء الدولي، ولكن الرئيس مبارك أصر على حكم القانون، فلو انحلت المشكلة مع حكومة بيريس، أي حكومة حزب العمل، فليس ذلك ملزمًا لحكومة الليكود أي المحافظين، ولكن القانون الدولي إذا فصل

في هذه القضية، فلا رادَّ لحكمه، وكان علينا أن نثبت أنها ملك لنا، وفي هذه الحال تقوم الحكومة الإسرائيلية بإقناع الشعب بأنها ليست لهم، وذهبنا كل واحد في طريق.

أنا ذهبت أجمع الكتب الجامعية والمدرسية التي بها خرائط، والخرائط تضع طابا خارج إسرائيل، ولم يأخذوا بهذه الكتب لأنها وجهات نظر بعض المدرسين والمطلوب وثائق تاريخية قديمة، وقد وجدناها في مكتبة «توب كابي» في إسطنبول، هذه الوثيقة كانت أقوى من كل الأوراق والخرائط التي إذا وضعناها على الأرض كانت أكبر من مساحة طابا.

بعض الناس في إسرائيل كانوا يقولون: وإيه يعني كيلومتر واحد، أنتم عندكم سينا وهي مساحة هائلة، ماذا يجري لو تركتم لنا هذه المساحة الصغيرة التي لا تقدم ولا تؤخر؟

إنها مساحة من السيادة، مساحة من الكرامة لا تهون، قال أمير الشعراء:

قـد يـهـون الـعـمـر إلا سـاعـة

وتـهـون الأرض إلا مـوضـعـا

.... إلا طابا!

وكان ضعفهم قوة مضافة!

عندما ذهبت لزيارة البيت الذي كان يسكنه الشاعر الألماني هيلدرلن في مدينة تبنجن، البيت صغير وعلى النهر، في هذا البيت عاش الشاعر أربعين عامًا، ومثلها في مستشفى الأمراض العقلية، قالوا لنا: كأنه كان يعرف النهاية فكان على عجل في كل شيء إذا أكل وإذا نام. ولكنه – أبدًا – لم يكن كذلك في شعره، ففي شعره صفاء وبهاء ورواء، الله على قصيدته (هيبريون)، الله على تراكيبه اللغوية وأعماقه الفلسفية.

فكأنه كان يستعجل كل شيء لكي يوفر لنفسه وقتًا أطول في النظر إلى صدى الكون الجميل في أعماقه الذهبية!

وأديب إسبانيا سرفانتس فقد ذراعه اليمنى في الحرب، وكتب أروع رواية في العالم (دون كيخوته) بيده اليسرى، ولم يوقفه هذا العجز عن الإبداع. وممثلة فرنسا الأولى سارة برنار كانت بساق واحدة، وكانت أروع من كل من كان لها أو كانت له ساقان، لا هي شعرت بعجزها ولا لاحظ ذلك أحد!

وعبقري الموسيقى بتهوفن قد أصيب بالصمم، ومن يذهب إلى بيته في مدينة بون يرى المكبرات البدائية التي كان يضعها في أذنيه ليسمع ما يقوله الناس، وكاد يصاب بالجنون عندما رأى الناس يحركون أيديهم ويصفقون وهو لا يعرف لماذا؟ فقد ظن أول الأمر أنهم يسخرون منه ومن موسيقاه، فهو لم يكن يسمع، ولم يكن الصمم عائقًا للعبقرية!

والرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت أصيب بشلل الأطفال وكان هو الرئيس الوحيد الذي انتخبه الشعب الأميركي أربع مرات رغم أنه جالس على مقعد له عجلات!

وأنا لم أر - ولا أنت - هوميروس والمعري والأعشى وكاتب الأرجنتين بورخس، ولكن ربما تكون قد رأيت طه حسين، وكلهم عميان، ولكنهم كانوا أقوى من هذه العاهات الدائمة، أعظم من هذه العقبات.

أنا استمعت إلى طه حسين وأسعدني الجلوس معه ومتابعته والاستمتاع به والامتنان له أيضًا، والله ما أجمل صوته وما أسهل أداءه وأجمل عباراته، كان طه حسين يعرف أن صوته جميل، ولذلك لم يكن يتكلم وإنما كان يشدو، كأنه يغني، وكان ينبوعًا دائمًا للكبرياء، وعظمة العلماء والعبقرية في التسامي على الضعف، لأن الإنسان أقوى والإرادة أعظم، وإذا كان للإنسان عينان وأذنان وساقان ويدان فقد وهبته العبقرية مائة من كل نوع ليظل فوق، مثلاً عاليًا هاديًا.

كيف كانوا وكيف صاروا؟!

قليلون جدًا قد عرفوا مستقبلهم، فليس صحيحًا ما يقال إن العظماء هم الذين كانوا يعرفون بوضوح خط سير الحظ والتاريخ لحياتهم، فالرئيس الأمريكي كلينتون كان مفتونًا بالرئيس الأمريكي كيندي، في يوم سأله الرئيس كيندي: وأنت ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ فأجاب بسرعة: رئيسًا لأمريكا.

وكان مرتين، وكان من أعظم رؤساء أمريكا، ولما ذهب كلينتون إلى روسيا رأى في الكرملين طفلاً هو ابن أحد الوزراء سأله: وأنت ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ ولما سكت قال له كلينتون: وأنت تريد أن تكون رئيسًا لروسيا؟ فلم يفهم الطفل ولم يقل شيئًا!

الرئيس ترومان كان تاجر خردوات. وأينشتين كان موظفًا في دار تسجيل الاختراعات في سويسرا، ونجيب محفوظ كان موظفًا بوزارة الأوقاف، وقد شهدت محاولات إقناعه بأن ينتقل إلى مكان آخر، فرفض وقال: إن في هذه الوزارة كنوز الحياة البشرية بما فيها من خلافات ومشاكل وشر ويأس وأمل!

والأديب الأمريكي فوكنز كان نقاشًا - وهتلر كان رسامًا - والأديب التشيكي كافكا كان موظفًا بإحدى شركات التأمين، والرئيس فورد كان «موديل» يستعرض الملابس الجديدة، وكان المطرب الأمريكي الفس برسلي سائق تاكسي، وكذلك كان المطرب الفرنسي الأرمني ازنافور، وقد تصادف أن يركب معه واحد يعمل في الإذاعة الفرنسية فسمعه يغني فأعجبه الصوت واللحن، سأله: أغنية من هذه؟ فأجاب: أغنيتي وكلماتي وموسيقاي.

فطلب إليه أن يتوقف وأن يغني له، فأعجب بصوته وكلامه وموسيقاه وأخذه من يده ليكون أشهر وأروع المطربين في فرنسا، ولما جاء ازنافور إلى القاهرة سألته: ماهي وصاياك العشر لأي مطرب؟

فقال: أن يكون جميل الصوت وأن يتعلم وأن يتدرب وفي صحة جيدة.

وقال : إن الغناء هو فن تنظيم التنفس، ولذلك نحن نتدرب تحت الماء بأن نتحكم في التنفس، فإذا خرجنا تصرفنا في التنفس وضبطناه.

وكان الشيخ رفعت، وهو أجمل الأصوات وأعمقها وأكثرها فخامة وعمقًا، يستطيع أن يقرأ إحدى صغار السور في نفس واحد، فلديه هذه القدرة على تنظيم التنفس، رغم أنه كان هزيلاً ضعيفًا ومن هذا الضعف كانت هذه القدرة على الجمال والجلال!

هؤلاء أقذر مخلوقات اللّه!

الإنسان هو الحيوان القادر على صناعة الأدوات. والحضارة هي علم وفن تطوير أدوات الحياة والموت.. ولكن عواطف الإنسان ومشاعره لم تتغير ولم تتطور. فلا يزال الإنسان خشنًا حقودًا دمويًا.. مثلاً: يركب الإنسان أروع السيارات ثم يفتح النافذة ويبصق في الشارع.. أو يضع خرزة زرقاء لمنع الحسد!

رائد الفضاء أرمسترونج أول إنسان هبط على القمر، كان يلف رقبته تحت البدلة الفضائية بإيشارب هدية من والدته بعد أن دارت الكنائس تبارك هذا الإيشارب لكي ينقذه من الموت؟ مع أن هناك عشرات من محطات المتابعة الأرضية ومئات العقول الإلكترونية ترصد حركاته وتبعث بدرجة حرارته وضغطه وقطرات العرق على جبينه، إلى المحطات الأرضية!!

وفي رحلة أحمد بن فضلان في أوائل القرن العاشر الذي كان موفدًا من الخليفة العباسي المقتدر إلى ملك البلغار.. وقد رأى سلوكيات الروس والإسكندنافيين ووصفهم بأنهم أقذر مخلوقات الله. لماذا؟ لأنهم لا يغتسلون في دورة المياه ولأنهم يجلسون معًا رجالاً ونساءً في دورة المياه دون حرج من أحد.. ولأنهم يهتكون أعراض البنات بالقرب من جثث الموتى. وبصورة وحشية..

وقد رأيت في القرن العشرين نفس الصور في روسيا وفي كوبا. وأذهلني ذلك.. دخلت دورة المياه وتراجعت.. ولكن لا توجد وسيلة أخرى. الرجال يخلعون ملابسهم أمام بعضهم البعض ويجلسون.. إلى آخر ما يمكن تصوره.. في إحدى المرات أدهشني أن جاري يقلب في إحدى الصحف ويطيل القراءة وفجأة وجدت أن جاري سيدة، وشعرت بحرج وضيق .. ولكنها.. ولا هي هنا.. وفي كوبا أيضًا نفس المشاهد المقرفة!

هؤلاء هم الذين سبقوا الدنيا إلى الفضاء الخارجي فكانت لهم أول سفينة فضاء وأول كلبة في الفضاء وأول فتي جاجارين وأول فتاة فالنتينا ثم أول محطة مدارية.

وأحمد بن فضلان قد شعر بالقرف عندما وجد الرجل يخلع ملابسه والبنت تفعل نفس الشيء ويرتمي فوقها أمام الرجال والفتيات أيضًا.. وأن رجالا كثيرين يفعلون نفس الشيء مع نفس الفتاة.. وإذا مات أحد العظماء كان على إحدى الخادمات أن تموت معه.. ولكن بعد أن يتبادلها الرجال واحدًا وراء واحد.

منتهى القذارة والحقارة..

والصورة في القرن الواحد والعشرين لا تختلف كثيرًا!

هل الحاسة السادسة حقيقية؟

منذ أيام الحادثة الشهيرة بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والقائد سارية، والعلماء يبحثون عن هذه الظاهرة. يقال إن الخليفة عمر كان على المنبر عندما قال كلامًا لم يفهمه المصلون، فقد قال: ياسارية، الجبل.

وفسر الخليفة ذلك بأنه رأى الأعداء يستعدون للهجوم على القوات الإسلامية فنادى القائد، والغريب أن القائد قد استمع إلى عمر ونفذ الأمر ونجحت القوات الإسلامية.

إذن عمر رأى ما لم يره أحد، وسارية سمع ما لم يسمعه أحد، فعمر رأى عن بعد، وسارية سمع عن بعد، وهذه الظاهرة يسمونها في علم النفس: توارد الخواطر، أو التلبثة، أو التخاطر.

ولكن لماذا يرى بعض الناس ويسمعون ما لا يراه أو يسمعه غيرهم؟ لماذا تمد يدك إلى الهاتف تطلب صديقًا فتجده يطلبك؟ لماذا وأنت تسير تتذكر صديقًا فإذا بك تراه؟ لماذا تشعر الأم الغارقة في النوم بأن صغيرها الرضيع النائم في غرفة أخرى يوشك أن يقع من السرير فتذهب إليه قبل أن يقع فعلاً؟ لماذا تشعر الأم بصداع وألم في

ضرسها فتذهب إلى الطبيب فيكتشف أن أسنانها سليمة، ثم تجيء لها مكالمة من أمريكا بأن ابنها كان يخلع أحد ضروسه في نفس اللحظة التي توجعت فيها الأم؟! لماذا إذا أتوا بكلبة وأخذوا أولادها في غواصة بعيدة عنها عشرات الكيلومترات.. ثم راحوا يغرسون الدبابيس في أجسام الصغار فتنتفض الأم على الشاطئ؟

لقد رصدت جامعة كمبريدج مليون جنيه لأحد الباحثين ليدرس هل هناك حاسة سادسة، هل هذا صحيح، ولكن لماذا؟ ما الذي في العقل يجعل الإنسان يشعر بما لا يشعر به غيره؟ ولماذا بعض العميان يتفادون الاصطدام بأشياء لا يرونها..؟ لماذا الأعمى عنده بصيرة؟!

الأستاذ الباحث اسمه شيلدريك له موقع على الإنترنت ويطلب ممن يلمس في نفسه هذه القدرة أن يتصل به ليساعده على معرفة أين تكمن الحاسة السادسة ولماذا، وهل من الممكن تزويد الناس بها، وهل كانت قديمة ولم يعد الإنسان الحديث في حاجة إليها، فضعفت حتى تلاشت.

الجواب على ذلك عندي غدًا.. أو بعد غد!

وكانت قصة حياته: أم كلثوم!

عندما قرر أحمد السنباطي ابن الموسيقار العظيم رياض السنباطي الاحتفال بذكرى والده دعاني، وذهبت فأنا أحب السنباطي، ولكن الدعوة كانت لسبب آخر هو أنني عندما رأست تحرير مجلة (آخر ساعة) من 35 عامًا أجريت معه حديثًا وسألته رأيه في كل المطربين والمطربات. وقال وبمنتهي الصراحة، وكان هذا، وهو الحديث الوحيد الذي أدلى به في كل حياته، ربما لأننا بلديات وكذلك أم كلثوم وكل شعراء مصر: على محمود طه وإبراهيم ناجي وصالح جودت وكامل الشناوي والهمشري وسعيد عبده والغمراوي وعبد العزيز شرف وجمال الشاعر وأنه قد لحن قصائد لبعض هؤلاء، أو لأنني حملت إليه رسالة من الأمير عبد الله الفيصل قد أسعدته، أو لأن أم كلثوم قالت له إنني أحسن من كتب تعليقًا على لحنه الجديد رغم صداقتي لمحمد عبد الوهاب وكمال الطويل والموجي وبليغ حمدي.

وقد قرأت أن دمشق قد أبدعت أخيرًا في الاحتفال بذكرى رياض السنباطي وأنها قررت أن تحتفل بذكرى ميلاد أو رحيل كل الفنانين الكبار، ولم يكن رياض السنباطي اجتماعيًا، وإنما كان انطوائيًا، تمامًا ككثير من مخلوقات الله الأخرى في حالات الحمل والولادة

والرضاعة تنزوي.. تنطوي حتى يكبر صغيرها، وكذلك كان السنباطي في حالة حمل وولادة وحضانة لا تنقطع، وكان السنباطي متفوقًا منذ الصغر، فقد تفوق على والده في العزف على العود، وعندما ذهب يلتحق بمعهد الموسيقى طالبًا، عينوه مدرسًا للعزف على العود وغناء التواشيح.

وكان السنباطي قد عرف أمير الشعراء شوقي الذي كان راعيًا للموسيقار عبد الوهاب، وعبد الوهاب قد استعان به ليعزف في فرقته الموسيقية، والتفت إليه عبد الوهاب ورأى فيه موهبة موسيقية شرقية، وكان يقول إنه ملحن نابه في مدرستي، وكذلك قالت أم كلثوم عن سعاد محمد.

وسألوني كثيرًا في برنامج أحمد السنباطي عن رياض السنباطي ولكني لم أجد إجابات لكل الأسئلة فأنا أعرف (عن) الرجل ولا أعرفه إلا أخيرًا وقليلاً. وسألت أم كلثوم فضحكت وقالت: اسألني أنا، فهو يقول: إنني قصة حياته، ثم ضحكت أكثر وقالت: قصة حياته الفنية فقد تجلت عبقريته فيما غنيت له من روائع!

سألت رياض السنباطي: قل لي ما رأيك في أم كلثوم، فهز رأسه: ماذا تريد أن أقول عن السماء ونجومها، إن أم كلثوم هي قصة حياتي!

وقد وعدني قذاف الدم

استطاع الكاتب السويسري الألماني، فون دينكن، أن يجعل الناس في الدنيا كلما رأوا «شخبطة» على حجر أو جدران يتوقفون ليتساءلوا: متى عاش الذين نقشوا على هذه الأحجار. أما الكاتب السويسري فقد دار حول الأرض ونبش ونبث في الأرض بحثًا عن الحضارات القديمة في كل مكان، إنها حضارات أقدم من حضاراتنا بعشرات ألوف السنين. وقد نقلت عن فون دينكن وعن شارو، فكان لي كتابان هما: الذين هبطوا من السماء، والذين عادوا إلى السماء، وثار المؤرخون والعلماء على هذه الخرافات والتخريفات. أمًّا أنها خرافات فليست كذلك ولا هي تخريفات أيضًا، وإنما هم أناس وسعوا على أنفسهم أبواب الاجتهاد وساروا وطاردوا وتابعوا كل حجر غريب الشكل شاذ الحجم في آسيا وأمريكا اللاتينية.

وجاء آخرون يقولون بل هذه كائنات جاءت من السماء وهبطت إلى الأرض لا نعرف متى، ولا لماذا جاءت، ثم تركت آثارها سجلاً على حياتها وأسلوبها في الحياة، وكشفوا عن آثار في مكتبة إسطنبول وبغداد. وبالمتحف المصري في القاهرة، وقفت مع الأديب يوسف السباعي وثلاثة من رواد الفضاء الأمريكان ود. فاروق الباز،

عندما صرخ أحد الرواد، رأى رسمًا ظنناه طائرًا منشور الجناحين، ولكنه أكد أنه لطائرة شراعية، وأن الفراعنة اهتدوا إلى الطيران الشراعي قبل غيرهم بألوف السنين، ونشرت ما قاله رواد الفضاء وتناقلته وكالات الأنباء.

وكنت قد انشغلت بما وجده الباحث الفرنسي لوت الذي اقتحم الصحاري الموحشة بين ليبيا والجزائر، واهتدى إلى منطقة جبارين في وديان تاسيلي. وهناك على الجدران وجدوا رسومًا لأبقار وحيوانات لها أجنحة تطير، ثم لوحات لأناس يرتدون خوذًا وأمامهم تابلوهات تشبه التي في الطائرات أو في سفن الفضاء، ثم إن هؤلاء يجلسون على مقاعد تشبه مقاعد الطيارين. ولم يكن صعبًا عليه أن يقول: هؤلاء رواد فضاء جاءوا من فوق، ولكن أين (فوق) هذه؟ لا نعرف، ولكنه شيء غريب أن تظهر الحيوانات في هذه المناطق القاحلة بما يدل على أنها كانت أرضًا خصبة وغابات وبحيرات وأنها اجتذبت ضيوفًا من الفضاء الخارجي إلينا، وقد انتقلت هذه الصورة من جنوب ليبيا إلى مطار طرابلس وإلى مطار الجزائر أيضًا – فالصحراء تربط البلدين بهذه الأسرار الغامضة. وقد وعدني الوزير الصديق، أحمد قذاف الدم، بأن ييسر لي زيارة هذه المنطقة الخشنة الطافحة بعلامات الاستفهام والتعجب، وأرجو ألا أضيف إليها استفهامًا وتعجبًا، إذا لم يف قذاف الدم بما وعد!

الشاي الأخضر.. حتى لا تنسى!

عندما ذهبت إلى محلات الشاي في مدينة كيوتو اليابانية لكي أتفرج على بنات الجيشا والاستمتاع بطقوس شرب الشاي، لم أعرف أن الذي يقدمونه لنا هو الشاي الأخضر، أرجو أن أصحح هذه العبارة: محلات الشاي هي بيوت الجيشا، وقد ابتكرت لها كلمة لم يكن لها حظ من الانتشار وهي كلمة (مشهى) على وزن (مقهى)، ولكن لأن المقاهي أكثر انتشارًا بقيت هذه الكلمة حبيسة كتبي. وابتكرت كلمة أخرى لم تنتشر فبدلاً من كلمة (كافتيريا) وهي مكونة من كلمتين: «كافي» أي قهوة، و«تي» أي شاي، أما الكلمة فهي (القهوشية)، أما الطقوس فليست جميلة وإنما ميكانيكية فلا يدور بينك وبين بنات الجيشا أي كلام لأنها لا تعرف غير اليابانية وبيني وبينك لا لزوم لأي كلام.

ويقال إن أول كوب من الشاي شربه إنسان هو الذي شربه الإمبراطور شي نبغ سنة 2737 قبل الميلاد. يقال أيضًا إن الإمبراطور كان جالسًا تحت شجرة يشرب الماء الدافئ - وهي عادة صينية لتهدئة الأعصاب ولا تزال - عندما سقطت ورقة من الشجرة التي كان يجلس تحتها فاتخذ الماء لونًا أحمر قانيًا.. هذه هي بداية الشاي.

تمامًا كما سقطت تفاحة فوق دماغ العالم العظيم نيوتن فتساءل: لماذا تسقط الأشياء؟ ما الذي يشد الأشياء إلى الأرض؟ واكتشف قوانين الجاذبية. ولكن حتى اليوم لم نعرف لماذا توجد الجاذبية؟ لا جواب.

ويقال إن البن أيضًا قد اكتشفه أحد رعاة الماعز في الحبشة، فقد كانت الماعز ترعى بين الأشجار عندما نام الراعي، وسقطت على رأسه أوراق البن ويقال إنه كان من عادته أن ينام منفرج الشفتين فدخلت ورقة في فمه فلاحظ أنه لم ينم، كما أن الماعز تقفز نهارًا وليلاً دون أن تعرف الكلل والملل، وكانت هذه هي بداية البن، والبن والشاي كلاهما غني بمادة الكافيين المنبهة.

والصحف والمجلات العلمية تتحدث كثيرًا عن الشاي الأخضر ومزاياه، ففيه مادة تقضي على الأكسدة في الدم أو على تلك البروتينات التي نصفها بأنها سامة، وأنها تسد شعيرات الدم وتؤدي إلى الجلطة وتؤدي إلى ضعف الذاكرة والنسيان التام، إذن فإذابة هذه البروتينات تمنع خطر الإصابة بالسرطان ومرض النسيان التام – الزهايمر، فقد قام الأطباء بحقن عدد من الفئران بمادة الشاي الأخضر أعادت للفئران ذاكرتها، ولذلك يرى الأطباء أن الشاي الأخضر هو الحل لكبار السن حتى لا يصابوا بمرض النسيان التام، ولم يذكر الأطباء كيفية استخدام الشاي أو الأقراص المستخلصة من الشاي وهي متوافرة في الصيدليات. فإن كنت تذكر ما جاء في أول هذا المقال فلا خوف عليك ولكن لا ضرر من تناول الشاي الأخضر.

كلمات وأصداء لا تموت!

في أذني كلمات لها صدًى، ولم تذهب الكلمات وبقي الصدى، فعندما كنت أرى مسرحية «بيت الدمية» للمؤلف النرويجي هنريك أبسن، ضاقت بطلة المسرحية «نورا» بزوجها، وقررت أن تترك له البيت والمسرح والدنيا، فأغلقت الباب وراءها بشدة، في وجه الزوج والجمهور والقرن الـ 19!

وفي رواية «مدام بوفاري» لأديب فرنسا جستاف فلوبير كانت البطلة مدام بوفاري في انتظار زوجها طبيب الأرياف، وقد تجملت وراحت تحلم بلقاء وأحضان وقبلات عندما جاء الزوج متوحل الحذاء واتخذت ملابسه رائحة الحقول، وجلس على سريره وخلع حذاءه الغليظ فكان له دوي وصوت عنيف سحق أحلام زوجته الرومانسية، وكانت هذه الرواية بداية الأدب الواقعي الفرنسي، أما صوت الحذاء فلم يذهب عن أذني!

وفي رواية «الجريمة والعقاب» للأديب دستوفيسكي ذهب البطل وهو طالب ليقتل صاحبة البيت، أما وقع قدميه وصرير الباب فقد كان مخيفًا، ولم يزل كلما تذكرت ذلك!

وفي مسرحية «رومولوس العظيم» للأديب السويسري ديرنمات وقد ترجمتها وظهرت على المسرح بطولة صلاح منصور، جاء جندي من المحاربين وكان مرهقًا، وجلس وقال: أنا تعبان، هذا الجندي هو الممثل الصغير في ذلك الوقت: أحمد بدير، هو لم يذكر هذه العبارة، ولكني لم أنسها فقد كنت مرهقًا بائسًا تمامًا، وكانت هذه العبارة التي كانت لسان حال الإمبراطورية الرومانية – ومن الغريب أن الممثل صلاح منصور قد قام بدور رومولوس العظيم آخر أباطرة روما وقام بدور الملك فاروق آخر ملوك مصر ودور الإمام أحمد حميد الدين آخر ملوك اليمن.

أنا تعبان، قالها أحمد بدير الممثل الناشئ ولم يعرف كم كان صداها مزلزلاً مجلجلاً في أعماقي، لدرجة أنني خرجت من المسرح أردد بصوت أحمد بدير: أنا تعبان، والله تعبان يا أحمد، ولكن أنت لا تدري!

النوبة: أصل الحضارة المصرية!

منذ ست سنوات كنت مريضًا بمستشفى (أوتل ديو) في باريس، وكان الطبيب المعالج هو البروفسور روشمور، والرئيس مبارك هو الذي اختاره وقرر أن أسافر فورًا من غرفة الإنعاش في القاهرة إلى غرفة الإنعاش في باريس – وهي حكاية طويلة، والحمد لله.

وأكبر باقة ورد جاءتني كانت من صديقي الأمير فواز بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة سابقًا، وباقة أخرى من نقابة النوبيين في باريس ولندن ومدريد، غريبة! وأما الذي حمل لي هذه الباقة الضخمة فهو السائق وهو نوبي، لماذا؟

لأنني كتبت كثيرًا عن أهل النوبة وعن تاريخهم العظيم، وأنهم أصل الحضارة الفرعونية، وأن ملوكنا وملكاتنا الجميلات المحندقات نوبيات – فيما عدا نفرتيتي فتبدو أنها من أصول غير مصرية، أما حتشبسوت ونفرتاري وتيتي حماة إخناتون وغيرهن فمن النوبة. وأنا أرى أن حماة إخناتون هي صاحبة أجمل شفتين في تاريخ مصر الفرعونية وأجمل أنف أيضًا، أما الوجنات فهي بارزة، وهذا يدل على أصلها الإفريقي، وكتبت أيضًا أن بلاد النوبة كانت على صلة مباشرة بأوروبا، دون أن تتوقف عند مدن الوجه البحري والعاصمة منف، وفي الوثائق الإغريقية أن أهل النوبة ونبلاءها

وملوكها هم أيضًا الذين علموا مصر والإغريق نظام الملك ونظام الترقي بين الوظائف.

ولم يكن ذلك مجاملة لأهل النوبة على حساب التاريخ، وإنما هي الحقيقة، وما كتبه البروفسور وليام آدامز في كتابه (النوبة طريق إلى إفريقيا) ليس جديدًا علينا، وأهل النوبة يشكون في مثل هذه الكتب التي تحاول أن تخلق انفصالاً أو صدعًا بين مصر والنوبة، فالنوبة مصرية وأهلها مصريون ما في ذلك شك، وإذا كان بعض السياسيين الأمريكان أو بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية يشيدون بأهل النوبة وحاجتهم إلى العدل والإنصاف، فليس حبًّا لهم، وإنما تشجيعًا لهم على كراهية مصر والانفصال عنها، حتى الدراسات الأمريكية عن الحضارة النوبية تلقي حذرًا وخوفًا شديدًا، والذي قاله البروفسور آدامز من أنه ذهب إلى النوبة بحثًا عن الإنسان البدائي فوجد حضارة مستقرة، ليس جديدًا.

وإنما الحضارة والفكر عند النوبة قديمة، وإذا كانت لهم شكاوي من مصر فبسبب السد العالي وبحيرة السد التي أغرقت بيوتهم القديمة، وقد تم بناء بيوت بديلة، فهم مصريون لهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات، وهم على يقين من أنهم أولاد حضارة عريقة، ونحن أيضًا!

صورة الشيطان بقلم شيطان!

صاحب هذه الكلمات والأوصاف للشيطان ليس الرئيس الأمريكي بوش.. يقول في الصفحة الأولى من الكتاب: إن الشيطان يسكن بين الأخشاب في المدن القديمة، ويسكن جذور النباتات، ويسكن الكهوف والبيوت المهجورة، كان ذلك فيما مضى، أما الآن يسكن عيون النساء وشفاههن، ووسيلته وقوته هي الألوان والأصباغ والنظرات والعبرات، والشيطان يظهر على كل شاشات التلفزيون وفي الطائرات والصواريخ والمدافع، ومع قوات الاحتلال وفي السجون يلتقي المظلوم والظالم.

أما شكل الشيطان: فله عينان مسحوبتان طولاً وعرضًا وشعره أشعث أو يتدلى على كتفيه، والشيطان يسكن الإنسان أيضًا، ولذلك يحاولون إخراج الشيطان بالموسيقى والطرب أو بضرب المسكون أو ضرب الأرض أمامه وهم يصرخون قائلين: اخرج ياملعون!

أما هذا الكتاب فعنوانه «اخرج ياملعون»، ويقال إن هذا الكتاب من تأليف الرئيس صدام حسين، ولو شاء المؤلف الرئيس أن يضيف إلى صفات الشيطان القديمة صفات أخرى لنظر إلى نفسه في المرآة،

فسوف يجد الشيطان أنيقًا رشيقًا إذا مشى تبختر في مشيته، فالرئيس الشيطان كان هو الفتى (المعجباني)، ولكن الرئيس الشيطان المؤلف لم يتسع وقته لأن يرى أحدث صورة لستالين وهتلر ونيرون وإبليس!

وهكذا الكتاب محاولة ساذجة لحكاية تاريخ اليهود. فسيدنا إبراهيم في هذا الكتاب عنده ثلاثة أولاد: حسقيل ويوسف ومحمود، وقد وضع كل الشرور في حسقيل، فهو كذاب سافل حقير متآمر وجواهرجي يبيع الذهب ويشتري به الناس.

وفي الكتاب تعبيرات غريبة مثل: يقال إن فلانًا بخيل لدرجة أنه لا يتبول على جرح، فقد كان الناس ولا يزالون يتداوون بالبول، والشاعر العربي يتحدث عن البخل فيقول:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار!

شيء عجيب: فكل الطغاة الذين يحتقرون الأدباء والمفكرين يحاولون أن يكونوا مثلهم يكتبون ولا يحاولون أن يجعلوا المفكرين يحكمون مثلهم. وصدام حسين ليس استثناء في هذه القاعدة، وهو مؤلف رديء وحاكم أردأ!

سعادتك بين يديك

أنت سعيد.. لماذا؟ أنت تعيس.. لماذا؟

امتلأت كتب علم النفس والصحة بألوف الأفكار والاقتراحات والبرامج، والهدف: سعادتك.

آخر ما قرأت أن هناك نظرية تقول إن السعادة: طاقة، أي أن الإنسان لديه طاقة، هذه الطاقة يستطيع أن يستهلكها على مهل أو يستهلكها بهبل، تمامًا كما أن لديك مبلغًا من المال، تستطيع أن تنفقه في شهر أو تنفقه في لحظة، والمبلغ واحد، كما أن العمر واحد، والطاقة واحدة، فما الذي يجعلك سعيدًا أو تعيسًا؟

الجواب: حسن إدارتك لهذه الطاقة، أو بعبارة أخرى: إن السعادة هي فن وعلم تنظيم الطاقة، حسن إدارتها، أي المشكلة كلها: هي الإدارة، فن وعلم، وليست السعادة فقط، وإنما الصحة أيضًا ، فالصحة هي علم وفن إدارة وظائف وغدد جسمك وسلوكياتك الاجتماعية والنفسية، لماذا؟ لأن الإنسان: جسم ونفس وعلاقات، ووراء كل ذلك: طاقة، وليست البدانة إلا اختلال في الإدارة وكذلك النحافة، وكل الاضطرابات في الإفرازات الغددية والسلوكيات الاجتماعية.

والسعادة ليس معناها: الخلو من الألم، كما أن التعاسة ليست هي الخلو من الفرفشة، وإنما السعادة تمامًا كأصابع البيانو: أبيض وأسود، ونحيل وغليظ، وصارخ وهامس، والبراعة هي أن تجعل من كل ذلك لحنًا جميلاً، كيف؟ هذه هي القضية، وأساس الحلول كلها: علم وفن تصريف هذه الطاقة التي هي أساس كل شيء!

في كتاب الأستاذين: روبر ماجكوسلي ومورفي لانجلز من جامعة ميتشجان الأمريكية عنوانه «السعادة تحت أمرك»، يقولان إنهما أجريا تجارب على عشرة آلاف زوج وزوجة وشبان وشابات في مختلف المهن والجامعات، واكتشف الأستاذان أن أكثر الناس لايعرفون معنى السعادة، وأنهم يخلطون بينها وبين النوم الطويل أو الأكل اللذيذ أو دوخة المخدرات أو الزواج أو الحياة بعد الزواج، وقد اندهش معظم هؤلاء الناس لبساطة القضية، يقول الأستاذان إنهما وجدا صعوبة شديدة في إقناع معظم هؤلاء الناس بأن السعادة ممكنة، وأنها عند أطراف الأصابع، بشرط أن تكون هناك أصابع قادرة على أن تمتد وتنثني وأن يؤمن الإنسان بأن كل شيء ممكن.

سؤال: ألم تشعر بالراحة من هذا الحوار بيننا؟

جواب: بلى.

سؤال: هل تعرف ماذا حدث لك؟ لقد أفرغت همومك من مدلولها وأسقطتها بعيدًا عنك، فإذا بك وجهًا لوجه أمام طاقتك الحرة التي هي أم السعادة.

دعوت الله يأخذها قريبا!

ربما كان السبب أنني أريد واحدة مثل أمي، وإن كانت الأم لا مثيل لها، فلما سألني التلفزيون المصري: هل تحب أن يكون لك ولد أم بنت. فقلت: أريد بنتًا.

ولم أفكر جيدًا في معنى هذه الرغبة، فقد ظننت أن البنت سوف تستأنف دور الأم، وأخطأت في الحساب، فقد فوجئت بابنتين لأديب معروف.. والأديب مات، وجاءتا تطلبان حقوق النشر لكتبه، وتعذبتا طويلاً بين المكاتب والموظفين، هذا يقول غدًا وذاك يقول بعد غد، والعيون تقتحم الابنتين الجميلتين.

وأشفقت عليهما، وحزنت، ولم أستبعد أن يكون هذا مصير ابنتي بعد وفاتي، فالبنت وحدها ولابد أن تدفع الثمن ذهابًا وإيابًا. وأحمد الله، لا عندي ولد ولا بنت!

طه حسين كان عنده ولد وبنت، وتوفيق الحكيم أيضًا، والعقاد وعبد الرحمن بدوي لا ولد ولا بنت.

والأديب أندريه جيد كانت عنده بنت، وألبير كامي عنده بنت ومالرو عنده بنتان، والفيلسوف الإيطالي كروتشه عنده بنتان وهما صديقتان، وقد سعدت بلقاءات ممتعة معهما.

ولا أعرف إن كان لسقراط بنات أو بنون أو لأفلاطون أو أرسطو. والفلاسفة الألمان العظماء: كنت ونيتشه وشوبنهور لا عندهم بنات ولا بنون.

ثم تذكرت هذه القصيدة لشاعر كانت عنده بنت واحدة ولكن همومها كثيرة قال:

أحب بنيتي وودت أني	**دفنت بنيتي في جوف لحد**
فإما أن أزوجها غنيًا	**وتبقى عنده والهمّ عندي**
وإما أن أزوجها فقيرا	**فتبقى عنده في مثل عبد**
وإما أن أزوجها سفيهًا	**فيلعن والدي ويسب جدي**
دعوت الله يأخذها قريبا	**ولو كانت أعز الناس عندي!**

والشاعر يتحدث عن بنت واحدة، فما بالك لو كانت أكثر وغيرها من البنين؟!

الحل: تضليل هذه الأحجار بعيدًا عنا!

في الكون ما لا نهاية له من الأحجار الضالة الهامة في الفضاء، بعضها يبتعد عنا وبعضها في الطريق إلينا – بعد مائة سنة، بعد ألف، بعد مليون. وقد اتجهت إلينا أحجار كثيرة وتحطمت داخل الغلاف الجوي وصارت رمادًا. وبعضها ارتطم بالأرض وترك تجويفات هائلة، وبعضها عندما اقترب من الأرض كانت درجة حرارته مرتفعة فأحرق النباتات وبخر الماء وقضي على الحيوانات العملاقة مثل الديناصورات – حدث ذلك منذ ستين مليون سنة، وأنهى حياة الديناصورات التي تسلطنت على الأرض ستين مليون سنة أيضًا.

في العامين الماضيين، فزع علماء الفضاء من اقتراب بعض النيازك من الأرض أو النجيمات، وفكروا فيما يمكن عمله لو أفلتت هذه الأحجار التي هي بقايا «الانفجار العظيم» الذي بدأ به الكون من حوالي أربعة عشر ألف مليون سنة.

وظهرت نظريات مثيرة: من بينها إرسال سفينة فضاء تقترب من هذا الجسر الكبير – على الأصح الصغير فلكيًا – لأنه لا يزيد على حجم ألف هرم من أهرامات الجيزة، النظرية تقول: إنه لابد من معرفة هذا الجسم، ذلك بأن تقترب منه وتلقي فوقه كرة حديدية ضخمة

لتفتيت التربة، وهنا تقوم الكاميرات بتصوير المنظر وكاميرات أخرى بمعرفة درجة الحرارة والجاذبية والمعادن الموجودة في هذه التربة. ونظرية أخرى تقول: ولماذا لا نفعل كالأفلام الأمريكية فنطلق عليه قنبلة نووية تفتته بعيدًا عن الأرض. وعيب هذه النظرية أن «الفتافيت» سوف تتخذ مدارات مختلفة، ومن الممكن أن تسقط على كوكب الأرض.

ونظرية ثالثة تقول بل نطلق قمرًا كبير الحجم. وهذا القمر يرافق هذا الجسم الفلكي «النجيم» أو الشهاب أو النيزك. ولأن هذا الجسم ضعيف الجاذبية، ففي استطاعة القمر الصناعي أن يجتذبه وأن يخرج به عن مداره إلى مدار آخر بعيدًا عن الأرض، وسوف ينجح في اجتذابه مليمترًا في الثانية، وهو يحتاج إلى عشرين عامًا ليبعده نهائيًّا.

ويوم 4 نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي أطلقت اليابان قمرها «هايابوسا» ليبلغ النجيمة بعد رحلة لمليوني كيلومتر ويقترب مائة متر منها، ويلقي فوقها بإنسان آلى صغير. ولكن بسبب تأخر الأوامر أربعين دقيقة بين اليابان ومحطة المتابعة في أستراليا، ومنها إلى سفينة الفضاء، فقد نزل الإنسان الآلي في الفراغ ليظل ضالاً إلى الأبد، وفشلت المهمة الخطيرة.

أما المعلومات الأولية لدى علماء الفضاء، فإنه لايوجد، ولعشرين عامًا ما يهدد كوكب الأرض، فكل الأحجار الضالة اتخذت لها مدارات بعيدة عن كوكب الأرض، ولكن لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث لو اختل توازن أحد هذه النيازك لسبب ما، فتنحرف متجهة إلى كوكب الأرض؟

يمكن الاعتماد على أنفك!

في فيلم (مسيو إبراهيم وزهور القرآن) يقول البطل عمر الشريف للشاب اليهودي إنه إذا ذهب إلى مكان ووجد صناديق الزبالة وليست بها زبالة، فهو حي أرستقراطي.. وإذا وجد صناديق الزبالة وبها زبالة فهو حي غني.. وإذا وجد الزبالة خارج الصناديق فهو حي فقير.. وإذا وجد الناس تعيش في الزبالة ولم تكن هناك صناديق فهم في قاع الفقر..

وقال له أيضًا إذا دخلت إحدى الكنائس وشممت رائحة الشموع فهي كنيسة كاثوليكية، وإذا شممت رائحة البخور فهي كنيسة أرثوذكسية. أي أن هناك وسائل أخرى لمعرفة أين يكون الإنسان - ليست كلها بصرية - وإنما هناك الأنف والرائحة يعتمد عليها في معرفة الأماكن..

وقد قمت أنا بهذه التجربة منذ أكثر من عشرين عامًا. فقد أصدرت كتابًا بعنوان (بلاد الله خلق الله) .. وقررت أن أعرف الدول المختلفة بأسلوب مختلف.. فأعرف إيطاليا من النظر إلى ميادينها وإلى التماثيل والنافورات. وعن طريقها أعرف الذوق الفني في كل شيء آخر..

وفي فرنسا أبدأ من المقاهي والفترينات وأنتقل منها إلى ذوق الناس وحياتهم وثقافتهم..

وفي ألمانيا أنظر إلى الصيدليات..

وفي بريطانيا إلى المكتبات العامة..

ورغم أنني بالغت في ذلك كثيرًا.. ولكن أحدًا لم يلتفت إلى هذه الطريقة.. اللهم إلا المترجمة الإيطالية سينا روصنم..

ثم قمت بتجربة شخصية محدودة. فقد كنت أعيش في حي الزمالك بالقاهرة. وفي ذلك الوقت كان حيًّا أرستقراطيًّا. أما الآن فلم يعد كذلك.. وكان شارعنا اسمه شارع الأمير حسين. وكان الشارع يضم ست عمارات وفيلا واحدة.. الفيلا للسيدة نعمت هانم يكن أخت عدلي باشا يكن رئيس الوزراء السابق.. وكان من الممكن أن يمشي الإنسان مغمض العينين.. فلا خوف عليه.. فالسيارات قليلة والشوارع نظيفة ناعمة. وفكرة أن أمشي مغمض العينين وأهتدي إلى البيوت التي أمر أمامها برائحتها.. وكانت لها رائحة تتفاوت قوتها من بيت إلى بيت.. وفي الصباح الباكر يكون لها رائحة القهوة، وفي الظهر تتغير الرائحة ويكون لها رائحة الخضراوات المطبوخة، وفي العصر تحتشد كل الروائح: عطور وفواكه وروائح أخرى أميزها ولا أعرف كيف أسميها..

وإذا مررت بالقرب من فيلا نعمت هانم يكن فإنني لا أجد أية رائحة: لا بن ولا شاي ولا لحوم ولا زبدة ولا سمنة ولا فاكهة.. ومن

المؤكد أنها تأكل وتشرب وعندها طهاة، فأين تذهب الرائحة.. وفهمت فيما بعد أن طعامها مسلوق وأنها تكره كل هذه الروائح الجميلة المشهية التي تنبعث من كل البيوت.. وأن مطبخها تحت الأرض.. وأن جميع الطهاة والخدم يأكلون تحت الأرض – عجبي!

نعيق الغراب كهديل الحمام: لغة!

لم أجد صوت الغراب قبيحًا. إنه صوت غليظ ولكن ليس مزعجًا. صحيح أنه يخطف الأشياء من الناس ومن الطيور الأخرى. مرة واحدة أزعجني عندما مات أحدها فجاءت للعزاء غربان كثيرة. ولها صوت جنائزي شنيع، ولكن بعد هذه الوفاة سمعتها كثيرًا ولم أضق ولا تطيرت، فنعيق الغراب مثل هديل الحمام: لغة!

وعرفت فيما بعد لماذا أطلق سيدنا نوح غرابًا ليعرف إن كانت الأرض قريبة. والأرض القريبة كانت منطقة جبل أرارات على الحدود بين تركيا وأرمينيا.

والجبل هناك اسمه (جودي).. والقرآن الكريم يقول: ﴿**وَاسْتَوَتْ على الْجُودِى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾..

أما سبب اختيار الغراب فنوح قد نقل معه في السفينة سبعة أزواج من كل الطيور الحلال. ومن الطيور النجسة ذكرًا وأنثى أي من الغربان، وقد حرم الرب على كل الحيوانات أية علاقة جنسية على ظهر السفينة. أما الغراب قد عصي ربه فأرسله نوح وإذا ذهب ولم يعد فلن تنقرض الغربان. فأنثاه بها بيضة ملقحة.

ويقال إن الحاخامين كانوا يستخدمون الغراب في معرفة الطالع.. فمن حركة الغراب أو الغربان ذهاباً وإيابًا يعرفون المستقبل. وغراب نوح قد ذهب وعاد، وذهب وعاد، وليس في منقاره أو مخالبه ما يدل على أنه هبط أرضًا وأتى بأي أثر لها. ولذلك أطلق نوح حمامة.. ولا خوف عليها إن ذهبت ولم تعد فهناك ذكور وإناث من الحمام فلن تنقرض.

وفي الأمثال الشعبية: غراب البين.. أي أن الغراب رمز للمصائب.. وهناك تعبير في اللهجة المصرية معناه أن الصوت جميل والوجه قبيح: الصوت كروان والوجه غراب نوح - وربما انطبقت على أكثر المطربات والمطربين. فمعظم صاحبات الأصوات الجميلة لسن جميلات. كأن القاعدة أنه إذا كان الصوت جميلاً، فليس من الضروري أن يكون الوجه أيضًا، ولحسن حظ الغناء والطرب ألا تكون أم كلثوم وفيروز وفايزة أحمد وسعاد محمد في جمال هيفاء وهبي، وألا يكون عبد الحليم وعبد المطلب ومحمد رشدي ومحمد قنديل في جمال حسين فهمي. وقد رأيت وسمعت في الخمسينات مطربة من بيرو اسمها (أيما سوماك) - لا أطول ولا أروع ولا أقوى من صوتها إلا جمالها. فالتقطها أصحاب الملايين واختفت تربي أطفالها وتسهر حتى الصباح. لقد كان صوت أيما سوماك عجيبًا بين الأصوات. وقد سمعت لها أسطوانة تقلد فيها العواصف والأعاصير والموج والتسونامي. لقد بلغ ارتفاع صوتها ستة مقامات. وهذه فلتة تاريخية!

وكانت أعظم تحية وجهت إلى الفنان الإغريقي زويكس أن جاءت الغربان تخطف العنب من إحدى لوحاته، لقد رأى الفنان أنه استطاع أن يصور العنب حتى اختلط الأمر على الغربان.

وظل الفنان زويكس سعيدًا يشرب ويترنح حتى مات.. وقامت الغربان بالنعيق ذهابًا وإيابًا في أشهر جنازة تاريخية!

قفص وأجنحة متكسرة وصمت رهيب!

إنها فنانة من أفغانستان عمرها 27 عامًا واسمها نادية أنجومان، جميلة الملامح: الوجه والعينان والجبهة.. أما الحزن ففي عينيها والصمت الرهيب ففي شفتيها.. حملها إلى قبرها عدد من أفراد أسرتها.. كل جريمتها أنها شاعرة رقيقة وأن زوجها رجل غليظ القلب واليد واللسان.

ضبطها تقول شعرًا. وفي شعرها – وهذا طبيعي – جاءت كلمات الحب والأسى والشوق والجمال والدلال.. ونجوم السماء وزهور البستان ووحشية الغابة والأمل في أن تتخلص من قيودها وتحطم السلاسل وتهرب من القفص وتنهي القسوة عليها من كل الناس.

ولكن مثل هذه الكلمات هي أكبر من احتمال زوجها الذي يرى من للمرأة عورة: خروجها ودخولها وخطيئة الخطايا أن تقرأ وتكتب.. وأن يكون كلامها موسيقى.. وأن تلتقي بالفنانين والأدباء من أمثالها ويدور بينهم جميعًا كلام غريب.. وأن تكون هناك ألفة ومودة وهو كلام لا يفهمه الزوج.. حذرها كثيرًا.. أن تمضي في خيالها الشعري، وأن تغرد وحدها والناس تقول لها: الله عليك يا فنانة عظيمة..

وظهر ديوانها الأول بعنوان (الزهرة الكئيبة). وتستعد لديوانها الثاني.. وكان عندها ذلك الشعور اللعين الذي يصاب به الفنان عندما يشعر بأن أيامه قليلة.. يشعر بأنه مثل (طائر النار).. أو (طائر الشوك) عندما يدرك أنه في طريق اللاعودة إلى القبر فإنه يظل يطير من مكان إلى مكان حتى يجد شجرة الشوك، ويدور حولها ويتخللها حتى يجد شوكة طويلة.. أطول شوكة ويلقي بنفسه عليها. ويصرخ وتكون أجمل صرخاته، معلنًا أن هذه هي النهاية. كذلك فعلت نادية أنجومان. وكان ضرب زوجها قد أفضى إلى موتها.. وتركها ساعات حتى تأكد من نهايتها وأبلغ البوليس أنها انتحرت!

إنها مأساة الأديبة المصرية عنايات الزيات.. فقد عرفتها هي ونادية لطفي في جلسة واحدة.. فقد كنا – ناصر النشاشيبي الصحافي الفلسطيني وأنا – في زيارة لصاحبة أكبر إصطبل للخيول في مصر السيدة وجدان البربري – وكانت صداقتي لعنايات الزيات طويلة وعميقة. وقرأت كل ما كتبت. ونشرت لها أنا قصتها الوحيدة وصرختها الحزينة النهائية. ولا تزال عندي بخطها..

وعندما كنت ضمن وفد الأدباء في اليمن 42 عامًا قرأت إنها انتحرت– وسألت نادية لطفي صديقتها وزميلتها في المدرسة الألمانية فعرفت أنها نفس المأساة.

تقول نادية أنجومان في ديوانها (الزهرة الكئيبة): لا رغبة في أن افتح فمي أغني. سواء فعلت أو لم أفعل فأنا ملعونة.. كيف أتغنى بالجمال وفمي مليء بالمرارة.. أحلم بيوم أرفع فيه رأسي وأغني.. ولأنني تعيسة فلابد أن أبكي.. دعوني..

شاب حليوه يغني لسلطانة الطرب!

تبدأ الجلسة بأن ينظر بعضنا إلى بعض ويقول واحد: اتفضل سيادتك.. أي يتفضل سيادتي بأن أوجه للطالب أي سؤال. وكنت أسأل عادة: ماذا تحفظ من الأغنيات لعبد الوهاب وأم كلثوم.. أكثر الطلبة يحفظون جيدًا.. ولكن أحيانًا يقول الطالب: أحفظ لعبد المطلب.. أو محمد قنديل أو فريد الأطرش..

ولكن فوجئت بأن طالبًا شابًّا وسيمًا رقيقًا يقول: أنا أحفظ للسيدة منيرة المهدية!

غريبة! لا بأس.. أسأله.. ولكن لماذا منيرة المهدية بالذات وهناك عشرات المطربين الكبار والشبان في مثل سنك ومن زمانك..

ويرد الطالب: والله هذه هي الأغنيات المقررة.

– المقررة؟ أين؟

– عندنا في البيت..

– يعني إيه؟

– والدي كان معجبًا بمنيرة المهدية ولا يزال... واختفى الفونوغراف وظهرت الريكوردرات والكاستات. ولكن والدي لا يزال يسمع الفونوغراف أو الجرامفون والأسطوانات القديمة. ولا يسمح

بأي صوت آخر.. فإذا أراد أحد منا أن يستمع إلى عبد الوهاب وأم كلثوم وغيرهما ففي عرفنا بشرط ألا يخرج الصوت من الغرفة حيث لا يفسد على الوالد متعته بالانفراد بالسيدة منيرة المهدية..

وفوجئت بأن الطالب قد أتى بعصا ووقف وانحنى عليها وهو يغني لسلطانة الطرب: منيرة المهدية. والغريب أنه يحفظ الأغنية ويتقن الأداء القديم. وفوجئت بأن أحد أعضاء لجنة الامتحان يقول: الله يا سلطانة الله!

وقلت لأحد الطلبة: وما دمنا لسنا في البيت على مسمع من الوالد ماذا تحفظ لمطرب الملوك والأمراء ولسيدة الغناء العربي.. أما الذي قاله فأعجبني. الصوت.. والأداء.. والنفس الهادئ الذي ليس مسموعًا..

وجاء طالب فقال: إنه يفضل أن يغني لشادية..

فغنى لشادية وتدلل وتثنى مثلها تمامًا. ولا يحفظ إلا لشادية..

وتذكرت أنني حضرت امتحانًا في مدينة جاكرتا للطلبة المسافرين للدراسة في الأزهر.. وسألهم المستشار الصحافي إن كانوا يحفظون شيئًا من الموشحات.. فنهض طالب وراح يغني لشادية. واندهشنا.. فهم في إندونيسيا يعتقدون أن كل ما يذاع عندنا من الأغاني هي موشحات دينية. ومنعنا أنفسنا من الضحك وهو يقول: واحد اثنين واحد اثنين أنا ولا أنت ياحبيب العين.. واحد اثنين .. وسألنا إن كان يحفظ موشحات أخرى فقال بسرعة: خمسة في ستة بتلاتين يوم – لشادية أيضًا!

وإن كان يعرف غيرها فقال: إلهي يحرسك من العين وتكبر ليه يا محمد – لفايزة أحمد..

بل هناك مؤامرات دائمًا!

الذين يقولون إن هناك مؤامرة وراء اغتيال ديانا وكيندي والسادات وغيرهم، ينظر إليهم آخرون على أنهم مجانين لأنه لا توجد مؤامرة. وأن القول بالمؤامرة هو نوع من الكسل العقلي. فبدلا من أن نفكر ونبحث عن الفاعل الحقيقي، نريح أنفسنا ونقول إنهم الروس. إنهم الأمريكان. إنهم اليهود. إنهم الجماعات المتطرفة. ولكن من قال إن هذا التفسير خطأ؟ لقد أثبتت التحقيقات أن الذي قتل كندي هم رجال المخابرات الأمريكية والمافيا وهي أيضًا التي اغتالت مارلين مونرو، وأن الجماعات الدينية هي التي اغتالت السادات.

أما الأميرة ديانا فلي معها حكايات قلتها في كل تلفزيونات الدنيا. فقد كنت من قال إن المخابرات البريطانية اغتالتها لأنها تريد هدم الأسرة المالكة التي لا تقبل أن يكون لديانا ولد اسمه محمد أو بنت اسمها فاطمة، وفي نفس الوقت يكون ابنها رئيسًا للكنيسة. والتحقيقات كلها تؤكد هذا المعنى.

وقد نشرت الصحف الفرنسية يوم اغتيال ديانا أن شخصين لهما ملامح شرقية ظهرا في فندق «ريتس» يسألان عنها.. هذان الشخصان هما الصديق عبد الله حسن رئيس مجلس إدارة وكالة أنباء الشرق الأوسط وأنا.. ثم جاء التلفزيون الفرنسي وحملني في زورق بنهر النيل بين عشرات الزوارق لأحكي لماذا أرى أن المخابرات هي التي اغتالتها.. وجاء التلفزيون الألماني أيضًا.

ويوم أعلن أحد علماء الفيزياء أن الأمريكان لم يهبطوا على سطح القمر، فقد كانت له ملحوظة وجيهة، إذ رأى أن العلم الأمريكي الذي وضعه رائد الفضاء نيل أرمسترونغ قد تثنى، بما يدل على أن هناك جوًّا.. هواء .. في القمر. ولما كان القمر بلا جوٍّ ولا هواء. فهذا العلم غرسه الأمريكان في صحراء نيفادا لا في سطح القمر.. وهذه ملاحظة وليست مؤامرة من روسيا للتشكيك في الإنجازات الأمريكية.

هذا رأي.. وليس من الضروري أن يكون مدفوعًا من الروس!

أما الجريمة الوحيدة في التاريخ التي يستحيل أن تكون مؤامرة فهي جريمة هابيل وقابيل!

ليست كأهرامات مصر!

كما أن وجود ناطحات سحاب في أي مكان لا يدل على أننا في نيويورك، فكذلك ظهور أهرامات لا يدل على أننا في مصر.. قد ظهرت أهرامات في المكسيك. وأخيرًا أخرجوا من تحت الأرض في البوسنة بقايا أهرامات. ولا علاقة لها جميعا بأهرامات مصر التي هي الأهرامات الحقيقية في تاريخ الحضارة الإنسانية. فأهرامات مصر هي مقابر الملوك. وهي صورة لعظمة المهندس المعماري المصري، وكذلك علم الفلك. فالهرم الأكبر قد أرِّخ للهيئة الفلكية عند بنائه. كما أن فتحات الهرم الأكبر تشير إلى (الشعرى اليمانية) وهي النجمة الزاهرة والتي يمكن رؤيتها بالعين المجردة..

وقد أخفى الفراعنة الكثير من أسرارهم العلمية والطبية والفلكية في الأهرامات. وقد حاولنا في السنوات الأخيرة أن نفضَّ أسرار الهرم الأكبر.. ووجدنا به غرفًا لم يمسسها بشر.. ولكن لماذا؟ تحاول مؤسسة (ناشيونال جيوجرافيك) الأمريكية بالاستعانة بالإنسان الآلي أن تنفذ من الجدران الصماء تحت الهرم. وقد أفلحت في أن تنفذ من جدار فوجدت جدارًا آخر. لماذا؟ لا نعرف. وما الذي يخفيه الفراعنة وراء هذه الأبواب والجدران ذات المغاليق المعدنية؟ هذا ما

سوف نعرفه في العام القادم. وقد جاءت خرافات تملأ الفراغ المجهول. فقالت جماعات دينية أمريكية إن الشكل الهرمي يمكن استخدامه في تحديد أمواس الحلاقة – أي جعلها حادة.

كما أن القطط التي تسللت إلى الهرم وماتت في غرفة دفن الملك خوفو مهما طال الزمن عليها فإنها لا تتعفن..، وكثيرًا منا تسلق الهرم حتى غرفة الدفن ولم نجد حيوانًا ميتًا.. وقد سألت د. زاهي حواس عالم الآثار الشهير فأكد أنه لا صحة لهذه الخرافة.

وقيل إن كائنات من كواكب أخرى جاءت وبنت الهرم أو ساعدت في بنائه.. وليس ذلك صحيحًا مطلقًا. ولما جاء رئيس وزراء إسرائيل بيجين ظن أن أجداده قد بنوا الهرم. ولكن نائبه العالم الأثري يادين أكد له أن هذا غير صحيح.

فابتلع بيجين لسانه. وأذكر أنه طلب من الرئيس السادات أن يُهديه ولو حجرًا واحدًا من أحجار الهرم. فرفض الرئيس طبعًا.. قلت للرئيس مداعبًا: لو حدث ياريس فسوف يصبح من آمال شعب إسرائيل أن يحصل كل واحد على حجر.. والأحجار بعدد سكان إسرائيل: أربعة ملايين حجر. وضحك الرئيس السادات وقال: نحن نريدهم أن يخرجوا من سينا وبيجين لايريد أن يخرج من سينا وإنما أن يتسلل إلى داخل الهرم..

– يمكن يموت في غرفة الدفن..

– ولا يدخل ولا يخرج.. لأنه إذا دخل سياسيًا فلن يخرج دينيًا.. هاها.

التوائم ليست متشابهة تمامًا!

أكبر دليل على أن الطالع والأبراج ليست دقيقة، ما يحدث للتوائم من الذكور والإناث، فهي ليست متشابهة تمامًا، ولا تصاب بنفس الأمراض ولا تموت معًا. هناك تشابه في السلوكيات بصورة تبعث على الدهشة. وكثير منها ليس ذكورًا أو إناثًا وإنما ذكور وإناث.. وليست متطابقة. وأشهر التوائم في العصر الحديث: ابنتا الرئيس بوش.. وليستا متشابهتين تمامًا، بل إحداهما تشبه الأم والأخرى تشبه الأب، إنهما بربارة وجينا، ولدتا من 24 عامًا..

وأمين عام الأمم المتحدة كوفي أنان توءم، ولا نعرف شيئًا عن أخيه أو أخته. والممثل الأمريكي مونتجمري كليفت له توءم اسمها روبرتا.. وملك الروك آند رول ألفيس بريسلي كان له أخ توءم توفي بعد ولادته بأيام.. وفي التاريخ القديم الملك هنري الثاني ملك قشتالة وأخوه فردريك ولدا سنة 1333 وقتل الأخ وعمره 22 عامًا. والملك هنري الثالث ملك قشتالة أيضًا وأخوه الملك فردناند.. وكذلك الملك جيمس الثاني وأخوه ألكسندر، ولدا سنة 1430. وفي مصر عايشت الأخوين أستاذي الصحافة الحديثة: مصطفى أمين وعلي أمين، واثنين من الوزراء من أقاربي هما زكريا توفيق عبد الفتاح ومحمد

توفيق عبد الفتاح ولاعبي كرة القدم حسام وإبراهيم حسن، وابنتي الفنان أحمد مظهر.

أما مصطفى وعلي أمين فهما متشابهان جسميًا وسلوكيًا ولكنهما مختلفان في أشياء كثيرة أخرى، فعلي أمين مرض ومات قبل مصطفى أمين.. وكذلك زكريا توفيق قبل أخيه محمد توفيق. وفي مؤسسة (أخبار اليوم) كانت تسليتنا ومخاوفنا من مصطفى أمين وعلي أمين.. أحدهما يكتم السر والآخر يذيعه.. فالذي في دماغ مصطفى أمين تجده على لسان علي أمين.. وكنت أقرب الناس إلى علي أمين، وكان علي أمين إذا مرض فإنني أكتب بدلاً منه مقالة «فكرة» وأوقع بإمضائه هو.. ومن دون اتفاق بينهما يرتديان نفس الملابس صباحًا ومساء، وإذا مرض أحدهما فإن الآخر يتوجع.

وعندما دخل مصطفى أمين السجن - ظلمًا - تسع سنوات كان علي أمين يعيش في بيروت وفي لندن.. وكان لا يستريح إلا إذا نام على الأرض كما كان يفعل أخوه.

وكنا نتهيب أن ندخل مكتب أحدهما خوفًا من أن يكونا معًا. وعرفنا بالتجربة أنهما إذا كانا معًا فأقرب كلمة على لسانهما هي كلمة: لا.. ولذلك نحب أن ننفرد بأحدهما لنسمع كلمة جميلة اسمها: نعم.. لقد كانا مثل طرفي المقص من يدخل بينهما مفقود يا ولدي - كما يقول الشاعر نزار.

رأيت وسمعت السادات ممثلاً!

كل الزعماء ممثلون، لأنهم يواجهون الجماهير، ويجب أن يبدوا أقوياء فهذه القوة تطمئن الناس على حياتهم وبلدهم، وحتى لو كان الزعيم يعاني سكرات الموت فيجب ألا ينتقل ضعفه إليهم، فسوف يكون ضعفه نوعًا من خيانة الأمانة، فقد ألقوا الهموم كلها على كتفيه، وهو قد ارتضى ذلك.

وسمعت من الرئيس السادات أنه كان يتمنى أن يكون فنانًا، وعرفت من زملائه في الدراسة أنه كان ضمن فريق التمثيل في المدرسة، وسمعت من الرئيس السادات أيضًا أنه أخطأ الطريق إلى أمله، وهو أن يكون ممثلاً أو مطربًا، وقد سمعت السادات يغني وسمعته أيضًا يرتل القرآن الكريم، فلديه إحساس بأن صوته جميل النبرات.

وفي يوم جاء مذيع أمريكي اسمه جورداش، وأجرى حوارًا مع السادات وفجأة قال له: ما رأيك ياسيادة الرئيس لو أننا قمنا بتمثيلية معًا؟ أنا أقوم بدور السادات وأنت تقوم بدور مناحم بيجين، وأشار لي أن أقوم بدور ياسر عرفات وأن يكون هذا التمثيل مرتجلاً.

مفاجأة! وتكلم السادات بلسان بيجين مهاجمًا السادات والعرب، ثم طلب أن يعود على نفسه وأن يرد على كل الذي قاله على لسان بيجين، وضحك السادات وإذا به يهاجم بيجين بعنف، ويؤكد لبيجين أن مثل هذا التفكير العتيق لن يحقق السلام بين إسرائيل والعرب!

ويبدو أن قيامي بدور ياسر عرفات كان ضعيفًا، فقال المذيع: أنا سوف أقوم بدور عرفات وأن يتولى الرئيس السادات الرد على ما يقوله عرفات، وقال السادات كلامًا معناه أن عرفات موهوب في إضاعة الفرص، وأن موهبته كما وصفها الدبلوماسي الشهير أبا أيان: إنه لم يترك فرصة لإضاعة أية فرصة!

وبعد نهاية التمثيلية المرتجلة قال لي جورداش: مصيبة كبرى أن يحكمنا هؤلاء الناس الذين هم أقدر على التمثيل من الممثلين أنفسهم!

ونقلت رأي جورداش إلى الرئيس فقال لي: هات ميكروفونًا وضعه أمام أي إنسان سوف يفتح فمه، فإن كان أمامه شخص واحد فسوف يتحدث إليه، وإن كان أمامه عشرة فسوف يحاورهم، وإن كانوا ألفًا فسوف يخطب فيهم.. هذا قدرنا!

وقدرنا نحن أيضًا!

الثـرثـرة من ذهب!

في العلاج النفسي يطلب الطبيب من المريض أن يتمدد على أحد المقاعد ويقول أي كلام.. يثرثر.. (يرغي).. ويستطيع الطبيب أن يعرف ما الذي يشكو منه المريض.. ماذا يقول وماذا يحدث له عندما يقول أو يحاول أن يخفي أو يكرر.. المهم ألا يتوقف عن الكلام.. عن السر.. عن هذه الثرثرة..

وربما كانت المرأة أكثر ثرثرة من الرجل.. ونحن نندهش كيف أن الكلام عند المرأة لا ينتهي.. لا يهم ماذا تقول.. ولكنها تجد ما تقول وتجد من يستمع إليها من بنات جنسها.. تجد صديقتين جالستين معًا ساعات.. ثم تودع الواحدة الأخرى ولا تكف عن الكلام.. وتقفان أمام باب الشقة وباب الأسانسير.. ولم ينته الكلام. كيف؟

هذه الثرثرة لها معنى.. ومن غيرها تصبح الحياة الاجتماعية صعبة جدًا.. خانقة. فلو أمسكت لسان المرأة فكأنك سددت أنفها فلا تتنفس..

والرجال يفعلون ذلك أيضًا.. وإن كان نوع الثرثرة مختلفًا. إنه في السياسة أو في الرياضة.. والثرثرة ليست شيئًا تافهًا أو لا ضرورة له. وإنما هي شيء ضروري أن تقول وأن يقال.. وأن تبقى هذه العلاقة العقلية أو الاجتماعية وإنها نوع من التخفيف من التوتر ومن الضيق أيضًا.

ولولا ذلك لتحطمت أعصابنا واضطربت حياتنا..

ففي الدول الأوروبية والأمريكية لابد من زيارة الطبيب النفسي.. فهو وحده الذي يدفعون له أجرًا لكي يستمع إلى أي كلام وفي أي وقت. فلا أحد في الدول الصناعية الكبرى عنده وقت لكي يستمع بالساعات، ولكن في عالمنا الشرقي عندنا وقت في الهاتف وفي المقاهي وفي الديوانية الكويتية وفي «الونسة» السودانية والصالونات السعودية.. ولسنا في حاجة إلى طبيب نستأجره لكي يسمع فنحن نخفف عن أنفسنا أولا بأول..

وفي المقاهي نثرثر، ولولا ذلك لكان من الضروري أن يصاحبنا الطبيب النفسي ليلاً ونهارًا.

طلبت من صديق طبيب أمراض نفسية أن أستمع إلى ثرثرة أحد المرضى. وكان رأيه: «إن هذا غير أخلاقي.. ولكن لأنك تبحث وجاد فسوف تسمع!» منتهى القسوة. فالمريض يبكي ويصرخ ويتشنج والطبيب كأنه جهاز راديو أو تليفزيون لا يهتز ولا ينفعل.. تمامًا كأي طبيب يجري عملية جراحية ويسيل دم المريض، وكأنه يتدفق عطرًا ووردًا، ولم أستطع أن أكمل الثرثرة التي تساعد على تشخيص المرض.

ولسنا وحدنا الذين نعيد ونزيد ونقول كلامًا فارغًا يملأ حياتنا.. ولكن رجال السياسة أيضًا لا يتوقفون عن الكلام الفارغ ليلاً ونهارًا.. ولو زهقنا فإنهم لا يزهقون فليس الصمت من ذهب وإنما الثرثرة أيضًا – اسأل الدكاترة!

يهون العمر إلا ساعة!

كان الشاعر أبو نواس خشنًا غليظًا واقعيًا عندما قال ساخرًا:

قــل لمن يــبــكــي عــلــى رســم درس
واقــفًــا مـــا ضـــر لـــو كـــان جـــلس؟!

ولا قلب له ولا عاطفة عندما قال:

لا جـف دمـع الـذي يـبـكـي عـلـى حـجـر
ولا صـــفـــا قـــلـب مـــن يـصـبـو إلى وتـــد!

ولكن عند المحبين لا فرق بين تمثال المحبوبة وورقة بعثت بها أو منديلها أو زجاجة عطرها الفارغة.. فكل هذه الأشياء مليئة بالمعاني الرقيقة. فالمنديل - مثلا - قطعة قماش من حرير أو من قطن أبيض أو أزرق.

ولكن إذا كان هدية من المحبوبة أو هدية لها، فقد تحولت خيوط المنديل إلى شعاعات من نورها ونسمات من عطرها.. فلم يعد منديل المحبوبة قطعة قماش.. بل قطعة من قلب.. من حب.. من دفء.. من تاريخ.

وكان الشاعر الألماني الرقيق نوفالس لايغسل يديه لأنه صافح المحبوبة بيد ولمس خدها باليد الأخرى.. ويقول حتى لو غسل يديه

فقد بقي عطرها، هذه هي الرومانسية. أبو نواس كان واقعيًا.. جافًا..

قال لي توفيق الحكيم إن طه حسين كان يحب فتاة فرنسية، وكان هو والحكيم ينتظرانها في أحد المقاهي، فإذا جاءت طلب إليه طه حسين أن يغادر المكان فورًا ويذهب بعيدًا.. فلماذا؟ كان طه حسين يقول: إذا بقيت بعيدًا وفي هذا المقهى فأنت ترى ما لا أرى، وأنا أسمع ما لا تسمع.. إنه لظلم عظيم أن نتقاسمها: أنا أسمعها وأنت تراها..

ولكن كان طه حسين يطلب إلى توفيق الحكيم أن يجمع له بقايا سجائرها.. وكان يحتفظ بهذه البقايا في منديل في جيبه..

وكان طه حسين يردد قول شوقي في مسرحية «مجنون ليلى»:

قد يهون العمر إلا ساعة

وتهون الأرض إلا موضعًا

وقال توفيق الحكيم: إن طه حسين كان يستعد طوال الأسبوع لهذه الدقائق مع المحبوبة.. وكان إذا نهض لوداعها يلمس بيديه المقعد الذي جلست عليه!

الله يا أساتذة: هذا هو الحب!

اكذب.. اكذب حتى يصدقك الناس!

أول ضحايا الحروب: الحقيقة..

فلا أحد يقول بالضبط ماذا حدث.. فكل دولة تبالغ في خسائر العدو وتبالغ أيضًا في قلة ضحاياها. وتنتهي الحرب وكل طرف يؤكد أن الطرف الآخر هو الخاسر حتى لو انتصر. أو تقول إنه انتصر ولكن كان الثمن فادحًا..

ربما كانت حرب جزر فوكلاند بين بريطانيا والأرجنتين هي الحرب النموذجية.. فالحرب تقع على بعد خمسة آلاف كيلومتر من بريطانيا. وقد أعلنتها مرجريت تاتشر ودخلت الحرب وخرجت منها منتصرة والصحف والشعب لا يعرف إلا القليل عن الذي حدث.. واستردت الجزر. وكانت الأرجنتين قد استخدمت صواريخ فرنسية اسمها: الأسماك الطيارة أي التي تقفز، وكذلك صواريخ تطير على وجه الماء، وأصابت نصف الأسطول البريطاني. فذهبت تاتشر إلى غريمها الرئيس ميتران وطلبت منه أسلحة مضادة للصواريخ.. وأعطاها. وكسبت الحرب التي صورتها أقمار التجسس الأمريكية..

ونحن في مصر لا نعرف بالضبط ماذا حدث في هزيمة سنة 1967. كم ضحايانا.. كم أنفقنا.. كم خسرنا؟ وكم خسرت إسرائيل؟ أما إسرائيل فقد قالت وبالتفصيل.

وفي حربنا في اليمن لا نعرف ماذا جرى، ولا كم مات منا، وكم مات من اليمن. وكم مليارًا خسرنا.. ولا حتى لماذا ذهبنا.. وفي الهزيمة لا نعرف ما الذي فعلته سوريا وكيف استدرجتنا هي وروسيا لهذه المأساة التي لم نعرف أبعادها حتى اليوم..

وفي الحرب العالمية الثانية لا نعرف بالدقة كم مليونًا خسر الروس والألمان والحلفاء. وكل يوم نسمع عن الحرب ونخرج وقد أقسمنا ألا نقول الحق! وهناك عبارة شهيرة لتشرشل يقول: إن الحقيقة غالية جدًّا، ولذلك يجب أن نحميها بجيوش من الأكاذيب.

ويقول أيضًا: إن الورق أقوى من الرصاص.. أي الدعاية وما تنشره الصحف، أخطر كثيرًا من المدافع.. وقد ذهبت القوات اليابانية في الحرب العالمية الثانية تهاجم سنغافورة التي وصفها الإنجليز بأنها حصن منيع، وفوجئ اليابانيون بأنه ليس في هذه القلاع إلا عشرة من الجنود!

وما يحدث في الحروب يحدث أيضًا في كل المعارك السياسية والاقتصادية – وأمامنا ووراءنا وحولنا الحرب في العراق. ولك ما قالته أمريكا عن أسباب الحرب والاستمرار فيها والحرص على البقاء وكذلك بريطانيا: كذب في كذب!

نوستراداموس لا يزال يقول!

منذ 450 عامًا نشر العراف الفرنسي الشهير (نوستراداموس) رباعياته التي كتبها بالفرنسية واللاتينية واليونانية والعبرية، فهو من أصل يهودي ثم تحول إلى الديانة الكاثوليكية، ومنذ ذلك الوقت والباحثون والمترجمون والعرافون ورجال الدين يفتشون بين السطور عن أحداث وقعت أو سوف تقع، ويتعسفون في تفسير التعبيرات والرموز الغامضة عن العراف الفرنسي ميشيل دنوتردام الشهير بـ«نوستراداموس».

فقد وجدوا أنه تنبأ بظهور هتلر، وأنه وصفه وصفًا دقيقًا وقال إن اسمه هدلر، وتنبأ باغتيال جون كنيدي، وظهور صدام حسين واحتراق بغداد، وتنبأ بظهور ناطحات السحاب وآبار البترول والغواصات والدبابات والطائرات والصواريخ.

حتى أحداث 11 سبتمبر ونسف المركز التجاري العالمي، فقد قال إن هذا سوف يحدث في مدينة الله، ولكن هل نيويورك مدينة الله؟ وقال إن التوءم سوف ينفصل عن الآخر يقصد ناطحات السحاب.

وقد حاولت أنا أيضًا وأوجعت دماغي في تفسير كثير من التراكيب الغامضة التي جعلها نوسترادامِوس كذلك خوفًا على نفسه من السلطات.

وأيام حرب الخليج وعدوان صدام على الكويت، ثم العدوان الأمريكي على العراق وجدت اسمًا قريبًا من اسم صدام. وأمامه ووراءه النار في الآبار وسقوط صدام حسين، كل ذلك وغيره حاولت، وحاول كثيرون أن يفرضوه على الأحداث لكي تؤكد أن العراف الفرنسي قد توقع كل شيء في الدنيا أو أشار إليه.

والناس عندها استعداد لأن تصدق العرافين، لأنها قلقة على مستقبلها وتتعجل معرفة ما سوف يحدث.

وقد أحصيت ترجمات نبوءات العراف تسعين في لغات كثيرة. في اللغة الفرنسية وحدها ظهرت خمس وعشرون ترجمة، والمعنى أن هناك يقينًا بأن الرجل صاحب نبوءات وكرامات وأنه أوتي هذه الموهبة الفريدة في معرفة ما سوف يكون وهي مبالغات غير معقولة ولكن لأن عباراته فضفاضة غامضة وفيها كثير من الرموز فقد استطاع أي واحد أن يلبسها ثوب الواقع.

آخر النبوءات أنه توقع نهاية الرئيس الفرنسي ميتران وأنه تحدث عن عشيقاته الكثيرات، ولكن ما الذي حدث لميتران؟ إنه رئيس دولة ناجح وفي غاية الذكاء وكانت له علاقات، وهو في ذلك فرنسي مائة في المائة، ولما قرأت الترجمة الحديثة جدًا لريمون فيار لم أجد في كل الذي قاله ما ينطبق على ميتران وحده، وإنما ينطبق على أي رئيس دولة، أو أي رئيس تحرير!

فلما رأى الملح أسلم

هيرودت المؤرخ الإغريقي الكبير هو أول من لاحظ وجود ملح على جدران المعابد الفرعونية، ولكنه لم يعرف السبب، وإنما عرفنا السبب بعد ذلك بألوف السنين، فالماء الذي يصعد من تحت المعابد إلى جدرانها إذا تبخر بقي الملح يفتت في سطوح المعابد والمقابر، وقبل ذلك كانت للملك سليمان ملحوظة ذكية، فقد اندهش الملك سليمان من أن الأنهار تصب في البحار، لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت!

ولم يعرف أن هناك ظاهرة في الطبيعة اسمها البخر، أي أن أشعة الشمس تبخر الماء فيرتفع البخار ويبرد ويتحول إلى ماء يسقط مطرًا فتمتلئ الأنهار التي تصب في البحار إلى الأبد!

ثم جاء دور الملح ليحل مشكلة تاريخية ودينية أيضًا، فقد أرسلت مومياء رمسيس الثاني إلى باريس، واستقبلوها سنة 1981 استقبال الملوك فأطلقوا المدافع تحية للملك ووضعوا له البساط الاحمر، إنها مومياء ملك، وقد سافر مع المومياء صديقي الطبيب الفرنسي العالمي د. موريس بوكاي، وقد رسموا التابوت من جميع الجهات وبكل أنواع الأشعة، وقطعوا من لحمه وحللوا ورصدوا. وتأكد لهم أن

الملك رمسيس الثاني يكاد يكون هو الفرعون الذي طارد موسى عليه السلام إلى سيناء، ولكن لا توجد أدلة كافية لهذه النظرية.

فلا نجد في التوراة أن الملك الفرعوني قد غرق أو حتى نجا، وجاء في التوراة: فرجع الماء وغطت مركبات وفرسان؛ جمع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، ولم يبق منهم ولا واحد.

ولكن عندما قرأ موريس بوكاي القرآن الكريم وجد هذه الآية التي أذهلته. يقول القرآن الكريم: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.

بعد أن قرأ بوكاي هذه الآية أسلم ثم أصدر كتابًا رائعًا عنوانه «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم»، طبع منه الملايين ونفدت كلها.

وبعد تحليل المومياء عثر العلماء على الملح الذي يؤكد أن الفرعون قد مات غرقًا، وقد بقيت جثته لتؤكد لنا صحة ما جاء في القرآن الكريم.

إلا الحديث فإنه أبدًا حديث!

عندما نقول (البطانة)، أي القماش الذي يلتصق بالجاكتة، وهي بطانة تتشكل مع الجاكتة، وكذلك بطانة الملوك والرؤساء، أو هي أيضًا الحاشية، فإن كانت غالية مثيرة كان صاحب الجاكتة أيضًا، فهو الذي اختار ما يعجبه أو ما يروقه أو من يشير عليه، ولذلك نقول: قل لي من تصادق أقل لك من أنت، أو قل من هم بطانتك أقل من أنت.

وقد لاحظ الناس أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز، أنه كان متشددًا ممسكًا في الإنفاق في كل الاتجاهات وكل الأغراض، والسبب: أنها أموال المسلمين، يجب إنفاقها في الوجوه التي تنفع المسلمين، وقد لاحظوا أيضًا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان يضم يده إلى عنقه ولا يبسطها كل البسط، فأصبح ملومًا، كما يقول القرآن الكريم.

وتجرأ أحدهم فسأل الخليفة عمر بن عبد العزيز عن الأموال التي ينفقها على العلماء والشعراء، فكان يقول : والله إنني على استعداد أن أفعل ذلك، أبدًا، فأشتري المحادثة مع العلماء والأدباء، ففي المحادثة معهم تلقيح للعقول، وترويح للقلب، وتسريح للهم وتنقيح للأدب.

أي أن هذه الجلسات الأدبية مع العلماء والشعراء والمؤرخين والقضاة والفقهاء تنير عقل الخليفة وتريح قلبه، فيكون مستنيرًا عند الحكم وإدارة شئون الرعية، فهذه المحادثات لا يمكن أن نقدرها بمال، وهو ينصح كل الناس أن تقبل على الحوارات والمحادثات وجلسات العلم والبحث. وألا يغلق الحاكم بابه وشباكه في وجه من هم أكثر علمًا وفضلاً، وإلا كان ذلك عقابًا للشعب لا يستحقه!

ويقال إن أحد الأدباء قد زار الشاعر العظيم ابن الرومي وكان مريضًا، وأثار حكاية الخليفة عمر بن عبد العزيز، فهزَّ ابن الرومي رأسه مؤيدًا الخليفة ثم قال:

ولقد سئمت مآربي.. فكأن أطيبها خبيث

إلا الحديث فإنه.. مثل اسمه أبدًا حديث!

هذه الديوك تصيح ظهرًا

عندنا مثل شعبي يقول: الديك الفصيح في البيضة يصيح.. أي أن الإنسان النابه الذكي نعرف ملامحه وهو طفل، ولا أجد قاعدة أكثر خطأ، فكثير من العباقرة كانوا في غاية البلادة، وبعضهم طردتهم المدرسة لخمولهم.

الأستاذ عباس العقاد لم يكمل دراسته، وقف حتى الابتدائية، وبعض الذين يعرفونه أشفقوا عليه، ولكن الشيخ محمد عبده عندما زاره في المدرسة واستمع إليه قال: سوف يكون عظيمًا فيما بعد!

وتوفيق الحكيم ذهبوا إلى والده يطلبون إليه أن يبحث له عن شيء غير التعليم، وأقصى آمال أهل طه حسين أن يكون مؤذنًا في مسجد، أو قارئًا في المقابر.

والزعيم البريطاني تشرشل الحائز جائزة نوبل في الأدب، كان لا يحسن التعبير حتى العاشرة من عمره.

العالم العظيم دارون قالوا له بصراحة: أنت لا تصلح لأي شيء، والمخترع الأمريكي أديسون الذي أضاف للإبداع أكثر من ألف اختراع قالوا لوالده: ابحث له عن أية صنعة، ولكن أم دارون كان لديها شعور خفي بأنه سوف يكون عظيمًا!

والعالم الفيزيائي العظيم أينشتاين كان بليدًا، وكان يستحوذ على الصفر بجدارة في كل المواد فيما عدا الرياضيات، وقد رسب في جميع امتحانات القبول!

ونيوتن أعظم عقلية لم يكن يبشر بأي مستقبل في أي اتجاه!

والفنان الكبير بيكاسو الذي يظل (يشخبط) ليلاً ونهارًا، اقترحوا على والديه أن يعمل في أي مقهى، لأنه لا أمل في تقدمه!

والموسيقار الإيطالى بوتشيني قال عنه أستاذه في الموسيقى: لا أرى فيه أية موهبة، وخير له أن يتوقف وأن يبحث عن أية صنعة أخرى!

وجيمس وات أبو الآلة البخارية التي بدأت الثورة الصناعية في أوروبا على يديه، كان مادة للفكاهة من زملائه، وكانوا يقولون له معظم الوقت: البليد أهوه، الغبي، الخنزير.

أما الشاعر الألماني هَيني فكان أبوه يقول له: اسمع يا بني خذها مني، أنا لا أعرف لك أبًا ولا أمًّا، أنت حمار ينقصك ذيل!

وكلها ديوك صغيرة لم نسمع لها صياحًا عند الفجر وإنما عند الظهيرة!

ذهبت وخطبت وصليت بالناس!

ربما لأننا كنا صغارًا.. فقد كنت عضوًا في (جماعة الإخوان المسلمين) في مدينة إمبابة. كنت أمين المكتبة: أقرأ وأذاكر وأتناقش مع الزملاء من طلبة كليات الآداب والهندسة والطب حتى ساعة متأخرة من كل ليلة. وكنا نتلقى أمرًا هكذا: يتوجه الأخ أنيس محمد منصور إلى مسجد سيدي إسماعيل الإمبابي لإلقاء خطبة الجمعة والصلاة..

وبالقميص والبنطلون أذهب إلى المسجد المحدد. ومباشرة إلى خطيب المسجد وأقدم نفسي. ويسألني: هل تحفظ القرآن يا بني؟ فأقول: نعم حفظته وأنا في التاسعة من عمري. ويضع يده على رأسي وعلى كتفي ويقول: ما شاء الله. تفضل يا بني! ولا أذكر الآن شيئًا مما أقول. ولكن هذه الخطبة قد أعددتها في ذهني قبلها بيوم. وليس من الصعب أن تجيء كلمة مباشرة وقصيرة.

ولم أتساءل في ذلك الوقت عن هذا الذي أفعله. كيف أنني أطيع الأوامر بلا مناقشة.. بينما في قاعات البحث نناقش كل شيء وكل الأصول الفلسفية: الله والكون والقيم الأخلاقية والقيم الجمالية والحياة بعد الموت والحساب.. إلخ.

نناقش ونقول ونعيد ونزيد بمنتهى الإصرار والقوة، مع أن الذي نعلمه من كل هذه القضايا الصعبة قليل جدًّا. ولكن بهذا القليل جدًّا نتهجم على الفلسفة والفلاسفة والمذاهب ويكون لنا اجتهاد مع أنه لا حق لنا في ذلك. فنحن صغار جدًّا. ولكنه غرور الصغار.

فكيف يكون عندنا مثل هذا الغرور و«العنطزة» والمراهقة ثم لا نناقش الأوامر التي نتلقاها من المركز العام من الإخوان المسلمين بأن نذهب هنا وهناك؟ أكثر من ذلك أن أخًا زميلاً كان مكلفًا بإلقاء خطبة الجمعة والصلاة في مسجد يبعد عن القاهرة مائة كيلومتر. ورجاني أن أحل محله. وقدم لي مشروع الخطبة عن الزواج والطلاق. وقبل أن أقرأ الخطبة لم أجد عندي معلومات كافية في هذه القضية. وذهبت وخطبته في جيبي. وتحدثت عن كتاب «أدب الدنيا والدين» واخترت بعض أبيات من الشعر قدمتها وأقمت الصلاة.

لابد أن الطاعة سببها قوة الدين واليقين: أتذكر كل ذلك ولا أندهش للشباب اليوم في طاعتهم لتكاليف الدين. ولكن أشعر بشيء من الخجل. بكثير من الخجل. فأنا عندما أذهب إلى إمام المسجد لا أقول له: من فضلك.. لو سمحت لي أن ألقي الخطبة وأصلي بالناس.. فعندي رجاء من جماعة الإخوان المسلمين.. أبدًا. لم أكن أقول ذلك. وإنما أقول له: أنا فلان وأنا سأخطب وأصلي بالناس. هذه أوامر الإخوان المسلمين..

وأحيانًا توهمت أن أحدًا من المصلين قال بصوت مرتفع: الله يفتح عليك ياولدي.. لست على يقين من ذلك. ولكن على يقين من أنني بعد أن أفرغ من الصلاة أحمل حذائي وأخرج دون مصافحة أو شكر لإمام المسجد..

«جليطة» شباب مندفع بعيدًا عن الذوق!

فلوس يوسف عز الدين!

كان لي ثلاثة أصدقاء في العراق: الشاعر الجواهري، والشاعر حافظ جميل، والشاعر د. يوسف عز الدين أطال الله في عمره.. زرته في بيته في مدينة الطائف وفي كل مرة يجيء إلى القاهرة للمشاركة في اجتماعات «المجمع اللغوي» أستمتع بالجلوس إليه وإلى روحه المرحة.. ود. يوسف عز الدين له قضية. إنها قضيته الأدبية الوحيدة في مصر.. مع دور النشر المصرية. فقد أعطاني د. يوسف عز الدين عددًا من كتبه لكي أنشرها. ويسعدني ذلك. وهو مؤرخ وناقد جاد ولم أشعر في حياتي أن رجلاً يستحق الكثير من الاهتمام مثل هذا الرجل ورجل آخر هو الشاعر المسرحي الحضرمي علي أحمد باكثير..

أخذت كتبه وقدمتها للدكتور سمير سرحان، الذي كان رئيسًا لهيئة الكتاب. وانتظرت صدورها. فلم تصدر. وسألني يوسف عز الدين ووعدته أن أبحث وأن أسأل وأن أتعجل. ولم تصدر الكتب.

وحملت كتبًا أخرى لدار نشر ثانية وثالثة. وصدرت الكتب وتولت إحدى دور الصحف توزيعها. والمطلوب هو نصيب د. يوسف من هذه الكتب. ربما لم يكن في حاجة إلى الفلوس. ولكن هذا حقه وأهم من الفلوس صدورها.

وذهبت هنا وهناك أطلب فلوسه. ومنذ أيام عرفت أنه يستحق مبلغ كذا وكذا عظيم. وبشرت د. يوسف في لندن. وذهبت أستعجل الفلوس لأودعها في البنك حتى تكون في انتظاره عندما يعود إلى القاهرة. ولكن حدثت المصيبة التي تكررت قبل ذلك.. ففي مصر أديب آخر اسمه د. يوسف عز الدين. وهو الذي تحول إلى حسابه هذه الفلوس. ولا يمكن استرجاعها لأي سبب!

سألني: وبعدين؟

قلت: لا بعدين ولا قبلين.. لقد تفرق دمك بين القبائل!

عاد يقول: وبعدين؟

قلت له: لست الوحيد الذي أراقت دور النشر دمه واستباحت حقه.. فالضحايا كثيرون من مصر والبلاد العربية الأخرى.. ولا يحل مشكلتك إلا بن لادن أو الزرقاوي!!

أكتب عنهما إذا أعادا لي فلوسي..

لا داعي.. فإذا كتبت فلن ينشر أحد كتبك.. ثم إن دور النشر ستجدها فرصة للاستيلاء على كتبك وعلى فلوسك..

يعني إيه؟

يعني أن تسكت..

وسكت د. يوسف عز الدين والعوض في وجه الله!

لا أسمع ولا أتكلم: من فضلك!

أحيانًا تجد الراحة في أن تقول وأحيانًا تجدها في أن تسمع.. وأحيانًا كثيرة لا تريد أن تقول ولا أن تسمع. وكانت هذه حالتي في ذلك اليوم عندما دعتني فاتن حمامة إلى الغداء، وقلت لها: أنا لا عندي استعداد أقول ولا عندي استعداد أسمع.

وضحكت حمامة وقالت: والضيوف أمنعهم من الكلام إزاي؟ وفيلا فاتن حمامة وزوجها د. محمد عبد الوهاب في أعلى المقطم، المكان حلو والفيلا بديعة، وقلت لها: أرجوك اجعلي مكاني إلى جوار واحد لايدع لنا فرصة في أن نقول وأن نفكر، وسوف أنتهز هذه الفرصة لكي أنام، أو هكذا توهمت أنني أستطيع، فأنا مرهق لم أنم.

وجاء الضيوف من علية القوم، أصدقاء جدًا، رجالاً ونساء، وانفتحت الشهية للكلام من كل نوع، وكان من الصعب أن أغمض عيني أو أذني أو أمسك لساني أو لسان أحد، ويبدو أن فاتن حمامة قد سلطت الناس بعضهم على بعض. وأخيرًا تحققت أمنيتي، لقد جاء د. عزيز صدقي رئيس الوزراء على عهد الرئيس عبد الناصر، لقد استولى على الزمان والمكان وبعصاه السحرية ألقى بنا في عصر الرئيس عبد الناصر، وهات ياحكايات ومبالغات وأرقام كنا قد نسيناها، ووجدتها

فرصتي الغالية في أن أسد أذني وعيني وانسدت نفسي عن الكلام والطعام ومنك لله يافاتن حمامة!

ففي سنة 1955 كنا معًا في القدس وفي دمشق وفي لبنان، وفي ذلك الوقت كان د. عزيز صدقي مدرسًا في كلية الهندسة واختاره الرئيس عبد الناصر وزيرًا للصناعة وذهبت أهنئه، فلم يعجبني وتضايقت منه، وفي يوم اتصلت بي السيدة والدته وقالت لي: أنت بتنشر صورًا لابني قبيحة، إنه ليس كذلك.. إنه زي القمر!

ياست هانم ابنك مكشر مكفهر، قولي له يبتسم ونحن ننشر له صوره التي يبدو فيها قمرًا.

وكلما ظهرت لعزيز صدقي صورة كئيبة وهو يعلن أرقام النهضة الصناعية في مصر– وكلها أرقام مفبركة – يبدو فيها جادًا صارمًا، تتصل بي السيدة والدته كأنني المسئول عنه وعن صوره في الصحافة المصرية، وأخيرًا قلت لها: أنا سوف أنشر صور الممثل الفرنسي آلان ديلون بدلاً من بسلامته ابنك العزيز عزيز. أما الذي سمعته في الهاتف فهو صوت بصقة على آلان ديلون!

طبيعي أنها أم. والأم ترى آلان ديلون قردًا مادام ليس ابنها!

إن كان عندك تلسكوب

مع نهاية هذا العام تكون اليابان قد نجحت بصورة باهرة في اتصال بين سفينتي فضاء لأول مرة في التاريخ، فالسفينتان في مدارين مختلفين وبسرعتين مختلفتين بينهما أربعون ألف كيلومتر، وأمكن الاتصال الضوئي بينهما.. معجزة علمية. ولكي تعرف مدى هذا الإنجاز: تخيل أنك وضعت دبلة زواجك فوق سطح الهرم وأطلقت عليها شعاعًا من أربعين ألف كيلو متر فنفذ الشعاع في منتصف الدبلة تمامًا!

ولكي تعرف أهم الأحداث الفلكية في العام القادم، هات خريطة، خريطة الهيئة الفلكية للأرض والمنظومة الشمسية أمامك، ففي يوم 4 يناير تكون الأرض في أقرب مدار لها حول الشمس، الشمس لامعة أكبر بزيادة 7٪ وسوف تعود سفينة (ستاروست) بعد أن جمعت عينات من المذنب (دايلو – 2) لقد استغرقت رحلتها سنوات، وسوف تعود بهذه العينات إلى الأرض فتهبط في صحراء بوتا يوم 25 يناير.

وفي نفس اليوم تقترب سفينة الفضاء (كاسيني) من القمر تيتان الذي يدور حول كوكب زحل، وهذا القمر تهطل عليه أمطار من غازات الميثين ويهتز بالبراكين الجليدية، وسوف يكون زحل في أوضح

صورة يوم 27 يناير حين يكون متعامدًا على الشمس ويظل هكذا كل الشتاء والربيع.

ويوم 10 مارس تبلغ المحطة المدارية حول المريخ غايتها تمامًا وسوف تمضي السنوات القادمة في ترسيم كوكب المريخ، سطح وأعماق التربة، بحثًا عن مياه تحت التربة ورصدًا للحرارة والغازات واهتزاز التربة.. ويوم 29 مارس سوف يكون كسوف الشمس كاملاً على قارة إفريقيا.. ويوم 11 إبريل تنطلق سفينتنا فضاء لتصوير الشمس بصورة ذات ثلاثة أبعاد وخصوصًا الفيوض المغناطيسية وإطلاق ملايين الأطنان من الجزيئات في اتجاه كوكب الأرض.

وفي العام الجديد سوف تعاود اليابان محاولاتها الجريئة المدروسة في رحلات إلى القمر وكذلك الصين، وفي هذا العام أرجو الله أن أفلح في تركيب تلسكوب جديد في قرية أحد أصدقائي وسط الصحراء لأتمكن من التأملات العميقة الصافية وسوف أرى جمال الكون وأبهة الخلق وعظمة الله.

آسف جدًا.. فقد نسيت أن أسألك إن كان عندك تلسكوب!!

صعلكة قوانين الطبيعة في شرنوبل!

كنا اثنين: رجل الأعمال محمد محمود وأنا عندما دعانا الرئيس كوتشيما رئيس أوكرانيا إلى الفرجة على المصانع التي تحولت من إنتاج الصواريخ حاملة الأقمار الصناعية إلى إنتاج الجرارات الزراعية. ذهبنا. رأينا. عرفنا أن سفن الفضاء الروسية تعتمد على صواريخ أوكرانيا التي يبعثون بها إلى موسكو ليركبوا لها عقولا، يعني الصاروخ من أوكرانيا والعقول والسفن من روسيا. وتمامًا كما كان يفعل الإمام أحمد آخر ملوك اليمن. فكانت الدبابات في مكان ومدافع الدبابات في مكان آخر..

وأوكرانيا واسعة شاسعة. وفي تلك الأيام كان الجو شديد الحرارة. وكانت هناك معاهدة غير مكتوبة بين الشمس وبنات أوكرانيا. الشمس تشتد حرارتها وبنات أوكرانيا يتعرين – متعة للسائحين!

وسمعت العجب عن الذي حدث في المفاعل النووي في شرنوبل الذي انفجر سنة 1989 فأطلق ما يعادل 400 قنبلة نووية من الإشعاع الذي قضى على مائة ألف مواطن والحيوان والنبات.. وألوف القرى تحولت إلى أشباح.. ومضت السنوات وعادت الطيور التي قد انقرضت وأخرجت الأرض نباتًا صعلوكًا – أي ينمو على كيفه فترى الشجرة

تنمو وتنمو ولا نعرف أين تتجه أغصانها وثمارها وأزهارها.. فالشجرة غير الشجرة.. فشجرة القطن مثلا لها صفات شجرة الأرز وأغصان شجرة البرتقال.. وظهرت للحيوانات أقدام وعيون وأسنان.. حتى الأطفال ولدوا مشوهين.. لقد ارتبكت الدنيا كلها في مساحة ثلاثة آلاف كيلو متر مربع!

إلى متى سيظل هذا الحال؟ لا أحد يعرف.

ومن الغريب أن الطيور التي تكاثرت مضطربة ومشوهة قد فقدت توازنها.. تمامًا كأن مستشفى للأمراض العقلية يتزوج مرضاها من مريضاتها وأتوا بالكلاب والذئاب التي تكاثرت بإرضاع وتربية الجميع – لقد أصيبت البيئة وعوامل الوراثة بالجنون فالطيور التي تهاجر إلى إفريقيا أكثرها عاجزة عن التزاوج أو ليست لديها أية رغبة في ذلك!

سألني الرئيس كوتشيما: إيه رأيك؟ قلت: وهل من الممكن أن يكون لي رأي؟ قال: تحب. قلت: ولا أحب أن أرى ولا أسمع هذه الصعلكة في قوانين الحياة!

سألت أحد مستشاري الرئيس كوتشيما: ولكن في بلادكم أجمل جميلات أوروبا؟ فأجاب بصورة قاطعة: لسبب بسيط أن أحدا لم يولد ولم يذهب إلى دائرة الدمار النووي في شرنوبل! قلت له: إن بعض نسائنا لم يذهبن إلى شرنوبل ومع ذلك ففيهن كل أعراض الدمار والرغبة في تدمير الرجل!

هربا من قبلة مناحم بيجين؟!

الدبلوماسي د. محمد البرادعي هو رابع مصري يفوز بجائزة نوبل. ورابع مسلم يفوز بجائزة السلام بعد الرئيس السادات وعرفات والسيدة الإيرانية شيرين عبادي. ويبدو أن المصريين كانوا دبلوماسيين أيضًا في الحفاوة به: لا طبل ولا زمر ولا أطلقوا اسمه على شارع أو على ميدان.. شيء غريب!

أذكر أن السادات قد كلفنا: د. ماهر وزير الخارجية السابق وأنا لنكتب الكلمة التي سوف يلقيها نيابة عنه في الاحتفال في أوسلو المهندس سيد مرعي.. وأنا الذي اقترحت أن يبدأ سيد مرعي كلمته بأن يقول بالعربية: السلام عليكم ورحمة الله ثم يترجمها إلى الإنجليزية بعد ذلك..

وكان الحفل بسيطًا والمكان متواضعًا جدًّا. ولم يكن فخمًا وفي غاية الأبهة كالذي كان فيه الاحتفال بالبرادعي.. بل أدهشني جدًّا أن يجلس في مكان قديم على مقاعد متحركة. والمكان كأنه إصطبل.. أو كأنه الكهوف التي يجلس فيها الشبان يتعاطون المخدرات. وجلسنا في الصفوف الخلفية، ولم نر الجالسين في الصف الأول. حتى الأضواء كانت خافتة كأنهم يتسترون على فضيحة عالمية.

وجاء السيد مناحم بيجين الفائز بجائزة السلام أيضًا.. وجاءت اللحظة الحاسمة وهي أن يتصافح هو وسيد مرعي..

وعندما عدت إلى الفندق طلبت الرئيس السادات. وقبل أن يقول: ألو، وجدته يضحك من كل قلبه. شفت هاها.. شفت يا أنيس ماذا حدث .. أنا والله لا أستطيع أن أفعل مثل سيد مرعي.. هاهاها..

أما الذي لم يستطع أن يفعله لو تسلم هذه الجائزة بيده هو أن يصد بيجين عن محاولة عناقه وتقبيله. ولكن المهندس سيد مرعي قال للسادات إنه يستطيع ذلك.. فلم يكد يقترب منه السيد مناحم بيجين حتى مد سيد مرعي يده على طولها فلما حاول بيجين أن يقبله سبقه ذراع سيد مرعي الذي أبعده وأوقفه عن العناق الإعلاني المنتظر!

أما لماذا لم يذهب الرئيس السادات فلأنه لم يكن سعيدًا بأن يفوز بجائزة نوبل مناصفة والسبب الثاني أنني أبلغته أن سيدة عضوًا في منح الجائزة قد اعترضت على استحقاق السادات لهذه الجائزة.

واتصل الرئيس السادات ببيجين يهنئه ضاحكًا قائلاً: ها ها.. يا مناحم إن سيد مرعي لم يستطع أن يقبلك خوفًا من زوجته.. هاها! وضحك بيجين قائلا: وأنا خوفا من زوجتي ذهبت أقبله.. هاها!

واتصل الرئيس السادات بحرم المهندس سيد مرعي: الحقيقة سيد زوج مطيع وليس فلاحًا وإنما دبلوماسي.. فهو لم يقبل بيجين أمام العالم.. ولكن بعيدًا عن الكاميرات عانقه وقبله.. هاها..

وهو ما لم يحدث!

للمرة الألف: هل أصل الإنسان قرد؟!

أمريكا تستأنف الحكم في قضية قديمة تلح علينا من حين إلى حين: هل الإنسان أصله قرد؟ وهي قضية خلافية معقدة، ولم يفلح أحد أن يجيب عليها علميًا، هذه القضية قفزت من كتاب الباحث الكبير دارون، الكتاب أسمه (أصل الأنواع).

وفي الأسبوع قبل الماضي أخرجت أمريكا كنوزها في متاحف التاريخ الطبيعي، أما العلماء فلم يهتدوا إلى رأي واحد، بل إن هناك خلافات كثيرة، أول هذه الخلافات أن هناك شبها بين الإنسان والقرد، ولكن لا يوجد دليل واحد على أن القرد تحول إلى إنسان في أية مرحلة تاريخية.

أما رجال الدين فيرون أن الجواب الذي لاجواب غيره أن الله أكرم بني آدم، وخلق آدم وخلق حواء من آدم، ومنهما كانت هذه البشرية.

ولكن هناك مشكلة، وهي أن رجال العلم يرفضون أن يكون التفسير الديني هو الذي يدرسه الطلبة، كما يرفضون التفسير الذي يرون فيه إقفالاً لباب الاجتهاد، ويفضلون أن يفكر أولادهم حتى لو لم يجدوا حلاً، وبما أن المواطن حر في اختيار النظريات التي يتعلمها

ابنه في المدرسة، فبعض الآباء يرفضون تدريس هذه النظرية أو فرض الدين على الطلبة.

وفي سنة 1927 اتهموا المدرس جون أسلوبس بإصراره على تلقين نظرية التطور هذه للطلبة، وأنه داعية للإلحاد، وأنه يخرج الصغار من معتقداتهم الدينية النبيلة، فاعترض آباؤهم وأدانوه وتظاهروا ضده حتى أدخلوه السجن.

وبهذه المناسبة اتجه كثير من الباحثين والسياح إلى جزر جالا باجوس وهي كلمة إسبانية معناها السلاحف، لكثرة السلاحف في الجزيرة شكلاً ولونًا وحجمًا، وهذه الجزيرة هي أكبر متحف للكائنات البحرية في التاريخ، ومن هنا بدأت خيوط الثورة البيولوجية التي فجرها العالم البريطاني الكبير تشارلز دارون، وهذه الثورة لها معني واحد: كيف كانت البداية، أي بداية الخلق، هل من الضروري أن تكون بداية واحدة لكل الكائنات ثم تفرعت وتناثرت أشكالاً وألوانًا في البر والبحر والهواء؟ أي كما أن الكون بدأ من مادة واحدة فلابد أن الحياة أيضًا كانت بدايتها خلية حية واحدة؟

إنها قضية صعبة ومعقدة جدًا، ولايزال الإنسان يستأنف الحكم من حين إلى حين، وهذه طبيعة العقل الإنساني ان يبحث، طبيعة القلب أن يتفتح ويؤمن بما أنزل الله.

اللهم ارزقني بلعبة أو لعبتين!

والله فشلت تمامًا في أن يكون لي هواية من أي نوع، هل لأنني لا أريد؟ الجواب: بل أريد، هل ليس عندي صبر؟ بل عندي صبر، هل الجو لم يكن يساعد على ذلك؟ بل كان يساعد، إذن ماذا؟

إن اللعب والهواية تحتاج إلى رغبة قوية، هذه الرغبة تقوم بتنويع كل الأهواء الأخرى، مثلاً لاعب كرة القدم، لو خيرته بين كل ما في الدنيا وأن يلعب جائعًا في ليلة موجعة الأرق، فلن يتردد في أن يقفز إلى الملعب وراء الكرة، ولم يحدث شيء من ذلك بالنسبة لي، فقد لعبت كرة القدم والسلة والطاولة، ولم أنشغل بها، وحاولت أن أعزف على البيانو وعلى العود والناي ولم أتعلق بواحدة منها – كأنني أقبلت عليها أعمي أو أطرش أو بلا أطراف، هل خسرت شيئًا هامًا؟ الجواب: نعم، ولذلك حاولت أن أتعلم الشطرنج، وقد أتيت بكتب كثيرة، وقرأت حياة (أساتذة) الشطرنج وأبطال العالم، ولم يكن في نيتي أن أكون مثلهم، ولكن أن أنشغل بهم، وبما كان يشغلهم، وحفظت بعض الأدوار التاريخية لأساتذة روسيا وبلغاريا، وكنت أتفرج منبهرًا على الأديب الروائي فتحي غانم، فقد كان من أبطال الشطرنج في مصر، وكان يستطيع أن يلعب مع عشرة في وقت واحد وينتصر عليهم، وأحيانًا كان يلعب معصوب العينين، وينتصر أيضًا، كيف؟ إنها موهبة.

أما العم أبو إسماعيل فهو معجزة الخلق، إنه فلاح، لا قرأ ولا كتب، ولكن إذا ذهبت لتلعب معه فأنت مغلوب مغلوب يا ولدي، وقد ذهبنا بالمرحوم فتحي غانم ليتحدى أبو إسماعيل، وطالت اللعبة وفجأة وجدنا أبو إسماعيل قد انسحب وأشعل سيجارة.. ماذا يا أبو إسماعيل؟ قال بمنتهي الهدوء: ولا حاجة، الملك مات! واندهش فتحي غانم وصرخ هو أيضًا: فعلاً الملك مات، أنت معجزة يا أبو إسماعيل!

وتركت الشطرنج لأنني أفكر كثيرًا، وفي استطاعة أي طفل في الأسرة أن يكشش الملك بينما أنا غارق في أفكار كثيرة! وأخيرًا بدأت أجرب لعبة (السودكو) وهي ملء المربعات الـ 81 بأرقام لا تزيد على تسعة طولاً وعرضًا، انشغلت بها، ولم أجدها ممتعة! أخيرًا جدًّا اهتديت إلى موقع هيئة الفضاء الأمريكية (ناسا).. وعلى هذا الموقع وجدت موقعًا بديعًا، فوازير فلكية، مثلاً: تظهر أمامك صورة، وإلى جانب الصورة يقال لك: هذه سحابة من غاز الميثين تبعد عن الأرض خمس سنوات ضوئية، فأين تكون؟ سؤال صعب، فزورة أخرى: صورة لقنوات على ظهر كوكب، الخطوط بالطول مرة وبالعرض مرة، متى عرفناها، متى اكتشفناها وما الدلالة؟ الإجابة سهلة، الخطوط على كوكب المريخ، واكتشفها العالم الإيطالي إسكباريلي، وكان من رأيه أن هناك أناسًا على المريخ تزرع الأرض وترويها. ويومًا بعد يوم تعبت، وأنا أحد الهواة حشر نفسه بين العلماء!

فاللهم اهدني إلى لعبة تستغرقني وتريحني!

لو كان عندنا ألف ألف زمار!

نحن في حاجة إلى ألف زمار، إلى أوركسترا من الزمارين، ولكن من نوع آخر، لماذا؟ أحكي لك الحكاية، يقال إنه في يونيو سنة 1184 جاء إلى مدينة هاملن الألمانية رجل يقول إنه قادر على إخراج الفئران من البيوت في زمن الطاعون الأسود. أعلنت المدينة أنه يستحق المكافأة الكبيرة، إذا هو نجح في ذلك، وراح الزمار ينفخ والفئران تمشي وراءه حتى نزل بها في نهر فيزر فماتت، ورفضت المدينة أن تعطيه المكافأة، فغاب الزمار شهورًا، وانتهز فرصة الصلاة في الكنيسة وراح ينفخ في مزماره فسار وراءه 130 طفلاً، دخل بهم أحد كهوف الجبل باستثناء طفلين أحدهما أعمى والثاني أعرج.

وهناك حكايات كثيرة عن ذلك، أو كانت السبب في هذه القصة الشعبية، منها أن رجلاً جمع الأطفال وعمل منهم جيشًا ليحاربوا في القدس، فساروا وراءه ولم يعودوا، أما الأطفال فكانوا يرقصون، وقد عرفنا في ما بعد أن الرقص سببه أنهم أصيبوا بمرض هنتنجتون وهو الرقص اللاإرادي، شاعرنا القديم قال: كالطير يرقص مذبوحًا من الألمِ!

ودخلت هذه الأسطورة كل الفنون الشعبية في ألمانيا، فالأخوان جريم قد جعلا منها قصة بديعة، أما الشاعر الإنجليزي روبرت بروسنج فنظمها قصيدة رائعة.

وفي تفسير هذه القصة قيل إنها رغبة لا شعورية عند الشعوب في البحث عن خلاص من أمراضها وأحزانها، وظهور الزمار في حياة الفئران موجود في كل الشعوب أيضًا، فعندنا في مصر يوجد رجل نسميه (الرفاعي) يزمِّر فتخرج الأفاعي من الشقوق واحدة وراء أخرى كأنها مخمورة أو كأنها منومة مغناطيسيًّا.

والهموم التي في دنيانا في حاجة إلى معجزة، تنقذنا من الدمار المادي والمعنوي، نحن في حاجة إلى ألف زمار، مليون ينفخ وتخرج وراءه الأمراض، وأولها الفقر والشك والحقد، أو يخرج وراءه المفسدون في الأرض وفي الناس ويذهب بهم الزمار إلى أي بحر أو كهف أو جهنم، لو كانت كل المصائب تتحول إلى فئران أو إلى أفاع في انتظار (زمار هاملن)، إن هذا الطرب والرقص الموجود في كل وسائل الإعلام، ليسا استخفافًا بكوارث البشر ولا امتهانًا لجرائمهم، وإنما هي صورة أخرى من مرض هنتنجتون أو مرض (خوريا) - والكلمة يونانية معناها الرقص، وهو رقص مرضي.

وعندنا في مصر حكاية أخرى تقول إن زمارًا أعمى سمع أناسًا يتكلمون فوقف يزمِّر، يتسول، فقالوا له: هنا مسجد، ابعد! فسكت وهو يقول: لله يا زمري!

فهل الزمارون كلهم عميان وضحكنا عليهم وقلنا لهم: إن هذه مساجد، فمشوا دون أن يستخرجوا كل شرور البشر؟!

تعلمت من قليل الأدب!

في ديوان «بستان الورد» للشاعر الفارسي سعدي هذه النكتة: سئل رجل من أين تعلمت الأدب؟ قال: من واحد قليل الأدب، فكان إذا فعل شيئًا امتنعت عنه!

ولم أر أحدًا يطبق هذه الحكمة مثل الموسيقار محمد عبد الوهاب. كان يقول: إن أحسن نموذج لأسوأ سلوك: سيد درويش قديمًا، وبليغ حمدي حديثًا، فكلاهما موهبة عظيمة، لكن سيد درويش بدد موهبته بتعاطي المخدرات والمنبهات وكذلك بليغ حمدي!

ولذلك كان عبد الوهاب لا يشرب الخمر ولا المشروبات الساخنة، ولا يأكل الآيس كريم، فهو يرى أن المطرب يجب أن يصون حباله الصوتية، وقدرته على التنفس، وكان لايدخن أيضًا.

والذي لم ينتبه إليه الناس أن عبد الوهاب كان حريصًا على أن يزور أي فنان صاعد ليرى بيته وأهله وطعامه وشرابه وغرفة نومه. سألته في ذلك قال: إن الموهبة كائن رقيق حساس، ولذلك يجب أن يهتم بها الفنان وأن يحرص عليها، وأغلب الشبان لايفعلون ذلك، وأنت تستطيع أن تعرف كم هو العمر الفني لأي واحد إذا رأيته في

بيته، أي كيف يصون موهبته وكيف يحتفي بها. أكثر الفنانين لا يعرفون أن لديهم موهبة، ولذلك يقضون عليها في مهدها!

وكنا ننده‍ش عندما يستأذن عبد الوهاب ليدخل غرفته وينام، فكان يطلب إلينا أن نلقي فوقه أكثر من لحاف، ويلف نفسه كأنه مومياء فرعونية، أما السبب فهو حرصه على أن ينام في درجة حرارة واحدة بعيدًا عن التكييف، وفي ذلك صيانة لجهازه الوحيد الذي يملكه ويعيش به ويعيش عليه جسمه!

وفي يوم امتدحت المطرب الشعبي أحمد عدوية وقلت «إنه صاحب أقوى الأصوات وأكثرها تميزًا، وهو أعجوبة بين المطربين». أما السبب فهو أن أحمد عدوية له صوت قوي رغم أنه لا يرعاه رعاية كاملة، فهو يغني في الكباريهات حيث الجو ملوث بالدخان، ثم يخرج من الكباريه إلى الهواء البارد ثم يدخل في كباريه آخر، من حار إلى بارد إلى حار إلى بارد، ومع ذلك فصوته قوي لم يتأثر بشيء!

وفوجئت بأن عبد الوهاب قال: أنا من رأيك، ولكني لا أستطيع أن أصرح بذلك فسوف يساء فهمي من المطربين والملحنين ورجال الدين!

ولكن أحمد عدوية ليس النموذج الذي يجب أن يقتدي به صاحب الموهبة التي يجب أن يحميها ويصونها، حماية لنفسه وحماية لموهبته، والنموذج الرفيع لذلك: عبد الوهاب وأم كلثوم!

يا قاضيًا بات أعمى!

هناك عادة مصرية أنه عندما نرى الهلال نقول: هل هلالك شهر مبارك علينا وعلى المسلمين، وقال والدي - يرحمه الله - في قصيدة طويلة:

رأى الهلال فحياه بغير فـــم أحلى التحيات أخلاها من الكلم

ورؤية الهلال مشكلة تتجدد كلَّ سنة، نحن رأينا، والسعودية لم تر، وتونس رأت، والرؤية كلها بالعين المجردة، ويكون شعبان 29 يومًا ويكون ثلاثين، وقد صدر للأستاذ عدنان عبد المنعم؛ قاض من السعودية، كتاب عنوانه (الأهلة – نظرة شمولية ودراسات فلكية) في 323 صفحة ومن مطبوعات الدار المصرية اللبنانية، وفي الكتاب قدَّم دراسة ضافية لمعنى «رأى يرى رؤية ورؤيا» كما جاءت في القرآن الكريم.

والآيات التي اختارها أكبر دليل على معاني الرؤية: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

﴿يُجَادِلُون فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذى يَنْهي (٩) عَبْدًا إِذَا صَلي﴾، ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِني رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾.

ومن رأي الأستاذ عدنان قاضي أننا نعقِّدها ونجعلها عسيرة الفهم؛ فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يحدد متى الرؤية ولا أين ولا كيف، والإسلام يسر.

وقد حدث في مصر أيام السلطان قنصوه الغوري أن اختلف العلماء حول الهلال، فكان قاضي قضاة المذهب الشافعي في مصر في ذلك الوقت اسمه الشيخ كمال الطويل قد أفتى بأن رمضان ثلاثون يومًا، بينما قالت كل العواصم إنه ناقص يومًا، فأفطر الناس يوم الصيام وصاموا أول أيام العيد! فثار الناس وتظاهروا أمام بيته يريدون الانتقام من الشيخ كمال الطويل لكنه ترك أولاده يدافعون عنه.

فقال أحد الشعراء:

ياقاضيًا بات أعمى ... عن الهلال السعيد

أفطرت في رمضان ... وصمت في يوم عيد

وقال شاعر ناشئ:

إن قاضينا لأعمى ... أم على عمد تعامى

سرق العيد كأن الـ ... ـعيد من مال اليتامى!

أسوأ من الإنفلونزا.. انتظارها!

أنا أول واحد يعطس في قارة إفريقيا – ولا فخر! وكان ثاني واحد هو الموسيقار محمد عبد الوهاب، وبعد ذلك نلتقي ونطلب أصدقاءنا في أوروبا وأمريكا بحثًا عن الأدوية الواقية من الإنفلونزا، الزكام والعطس والسعال وارتفاع درجات الحرارة.

أما أعراض الإنفلونزا التي تظهر علينا فليست الإنفلونزا، وإنما هي العقاقير القوية التي تهد الحيل، فلسنا مرضى ولكن كأننا تمامًا، كما يحمل إنسان إحدى مظلات الشواطئ للوقاية من الشمس، وتوجعنا أيدينا وأكتافنا، والسبب ليس ضربة الشمس، وإنما المظلة ثقيلة جدًا

وبسرعة تعاطيت بالأمس لقاح الإنفلونزا العادية، فإن لم تكن للوقاية فلكي أطمئن نفسيًا إلى أن يظهر لقاح إنفلونزا الطيور التي بدأت تنتشر من آسيا إلى أوروبا إلى أمريكا مرورًا بالشرق الأوسط، وهذه الإنفلونزا قد عرفناها في أوائل القرن الماضي، وهي لا تختلف عن الإنفلونزا العادية، ارتفاع في درجة الحرارة مع سعال وزكام وعطس وأحيانًا إسهال، وليس من المنتظر أن نعرف علاجها قبل الشهور الباقية من هذا العام.

وهذه الإنفلونزا انتقلت من الطيور الداجنة إلى البشر، أي الطيور التي يعيش معها وبينها فقراء آسيا، وتنتقل من الطيور إلى الإنسان وينقلها الإنسان كما ينقل كل إنفلونزا أخرى عن طريق ما يتناثر من فمه وأنفه، وضحاياها قليلون، ولكن الخوف هو من القدرة الهائلة عند فيروس الإنفلونزا أن يتحول إلى شكل آخر وأن يتمكن من جهاز المناعة في الإنسان، هنا فقط تتحول الإنفلونزا إلى وباء تنقله طيور البيت إلى الطيور الأخرى المهاجرة من قارة إلى قارة.

وقد واجهت أوروبا هذا المرض بالقضاء على كل ما لديها من الدواجن والبط والإوز، أما الطيور المهاجرة فلم تستطع السيطرة عليها، وما دامت الدنيا مفتوحة على بعضها البعض، طيورها على صغارها وكبارها، فلا حيلة لنا أمامها ومعها.

وأحمد الله أنني لم أقرب الطيور طوال عمري، لا متفرجًا، ولا آكلا، ولا معجبًا!

ولدت في مدينة التسامح الديني

نحن أبناء المنصورة من أصول فرنسية أو تركية، وعندنا جاليات أجنبية كثيرة ولها مدارسها وكنائسها، ولذلك كان المألوف أن نتكلم ونحن صغار لغات عديدة، وكان الأجانب يعلموننا ويعطوننا مكافآت مالية أيضًا، ولذلك تكلمت الفرنسية والإيطالية والألمانية صغيرًا، وكثيرون غيري، ولم يمض يوم في حياتي لم أردد فيه هذه الأسماء، جرجس وحنا وكوهين وليفي وجاك وماريان وفيوليت وأرليت، وهي أسماء لزملاء في المدرسة أو جيران، وكلنا نلعب في الشارع، أو نلتقي في المكتبة العامة، أو نتجمع في دكان كوهين الذي يبيع الورنيش والدبابيس والكبريت، ونشارك زميلنا في البيع أثناء غياب والده، وكذلك الزميل جرجس فأبوه ترزي، ويترك لنا المحل ونتولى خدمة الزبائن في كي الملابس أو تنظيف المحل، لم يحدث أن تساءل. أحدنا، ولكن لماذا؟ ولا عندما عرف أبي أو أمي فاستنكر ذلك، وإنما كانت والدتي تراه أخوة ومحبة وسلوكًا أخلاقيًّا سليمًا، وكانت أمي أيضًا تزور زوجات اليهود والمسيحيين وكن يزرنها أيضًا، وكنت أرافق أمي إلى المستشفيات تحمل الورد والفواكه إلى طفل مريض أو إلى أمه أو إلى أبيه، والطفل زميلي في المدرسة، وفي إحدى المرات

طلبت أمي أن أرتدى ملابس نظيفة قاتمة وأن أقوم بمسح حذائي ونصحتني أن أجلس في صمت مهما رأيت، وألا أتكلم وكان لابد أن أذهب إلى الكنيسة فقد توفي والد أحد الأصدقاء. ذهبت وجلست في الصف الأخير ووجهي في الأرض، وسمعت ولم أكن أعرف، ولم أفهم.

وحتى تلك اللحظة لم أعرف معنى أن يكون الإنسان مسيحيًا أو يهوديًا وما الفرق، ولا معنى أن تقبلني أم مسيحية أو أم يهودية، ولا أن أجدها في بيتنا أو أن أذهب مع أمي إلى بيت جرجس وبيت كوهين.

حتى جاء أحد أقاربي ووجدني ألعب في الشارع، واستوقفني وسألني عن أبي وأمي، ثم عاد يسألني أنا سمعتك تقول جرجس وكوهين.

قلت: نعم.

قال (مستنكرًا): ألا تعرف أن هذا قبطي وذاك يهودي، كيف تلعب معهما؟ وهل أمك تعرف؟ قلت إن أميهما صديقتان لأمي، فعاد مستنكرا: ووالدك يعرف؟ قلت: وهو أيضًا يزورهم؟

وسألتني أمي واستنكرت تساؤلات قريبنا وبدأت أفكر ثم عرفت فيما بعد، وظلا أعز الأصدقاء!

بعيد بعيد وحدينا مع هذه العجوز؟!

بعد هزيمتنا في 67 أقمت معرضًا للكتب عن الصهيونية واليهودية والقضية الفلسطينية وتنقلت به بين العواصم المصرية والعربية وكان اسم المعرض (اعرف عدوك).

والمعنى: أننا لم نعرف عدونا بدرجة كافية، فكانت هزيمتنا هي الثمن، وفي هذه الحرب نال كل منا ما يستحقه، هم عرفوا فانتصروا، ونحن لم نعرف فانهزمنا، إذن لابد أن نعرف لأن الحرب لم تنته والثأر لم يتحقق.

وفي يوم الافتتاح أقمت ندوة أو حفلة تحولت إلى ندوة، وقدمت المعرض وما به من كتب، ورويت حكايات المضحك فيها يبعث على الأسى، فقلت إن زميلاً صحافيًا وقع في الأسر، وعاد ماشيًا على قدميه من العريش إلى بور سعيد، ولما عاد سألناه فقال: والله أمة محمد بخير.

واستوضحناه فقال: طوال الطريق وجدت أناسا يقولون يا مصري تعال اشرب شاي. يامصري باسم الله، تعال كل معنا، يامصري.

وسألناه: من هؤلاء؟

فقال: لابد أنهم مسلمون لا أعرف من أين جاءوا، أكثرهم أبيض اللون أزرق العينين.

ولم يعرف أن هؤلاء من اليهود، وأنهم لم يترفقوا به وإنما كانوا يسخرون منه، وكان حزنه عظيمًا عندما اكتشف الحقيقة، ولكن الذي اكتشفناه أخطر كثيرًا من الذي عرفه، فهو لا يعرف اليهود، ولا يعرف أنهم من شعوب كثيرة، ولكن الصورة التي كانت لديه عنهم: هي أنهم قصار القامة طوال الأنف وفي أصواتهم خنافة وبس!

وكدت أفرغ من كلمتي عندما نهض أحد السادة المستمعين وقال كيف يسمحون لهذه العجوز أن تقول: بعيد بعيد وحدينا، بعيد بعيد أنا وأنت. إيه قلة الأدب دي، يا أخي غير معقول من واحدة شمطاء تقول مثل هذا الكلام الذي تذيعونه ليلاً ونهارًا، أريد أن أعرف ما المعنى وما المقصود، وأحمد الله أن السفير المصري يوجد هنا، ونائب رئيس الجمهورية السيد حسين الشافعي، أريد ردًّا!

هو يقصد أم كلثوم التي لم يفلح صوتها الجميل في أن ينسيه طولها وعرضها وتاريخ ميلادها وخلود الشعر والغناء والموسيقى.

ونظرت إلى نائب الرئيس وإلى السفير وقلت: آسف والله أنا لم أتصور أن من أهداف هذا المعرض أن نجعل أم كلثوم عدوًّا للعروبة والإسلام ثم أجيء هنا لأكشف حقيقتها التي خفيت على الناس في ليبيا!

الذي خرج ولم يعد!

رأي كبير آلهة الإغريق (زيوس) أن الإنسان وحيد، فقرر أن تكون له زوجة، وطلب من بقية الآلهة أن يمنحها كل واحد منهم صفة، وهذه الصفة هي الهدية وتم ذلك، ثم سألهم: ماذا تسميها؟ فقال أحدهم: نسميها باندورا، أي التي عندها كل الصفات، كل الهيئات، كل المواهب.

وكانت باندورا هي حواء الأساطير الإغريقية، ولها صفات أخرى غير صفات الرجل: هو قوي وهي ضعيفة، هو غبي وهي ذكية، هو صبور وهي قلقة، هو يريد أن يعمل وهي تريد أن تبقي في البيت.

ورأي كبير الآلهة أن يحبس كل شرور البشر في صندوق، وأن يبعث لها بالصندوق، وتركه عندها أيامًا، وأوصاها ألا تفتحه ثم حذرها، وإلا كان خطرًا عليها وعلى زوجها، وسافر الزوج، وراحت باندورا تتأمل الصندوق الجميل، ووجدت نفسها وحدها مع الصندوق وحده، وفي يوم رفعت الصندوق إلى عينيها ثم على أذنيها فقد سمعت صوت استغاثة داخله وأدنت أذنيها، وتأكدت أنها كائنات حية تطلب الإفراج عنها.

ثم فتحت الصندوق فخرجت أشكال وألوان غريبة من الكائنات وكلها تلسعها وتنهشها وتوجعها في كل مكان، ثم طارت إلى زوجها وأوجعته في كل مكان.

وفي يوم جلست باندورا تتوجع وتنظر إلى الصندوق الذي كان مصدرًا لكل هذه الويلات فسمعت صوتًا نحيلاً أو كما قال طه حسين: صوت نحيل أبيض يستغيث ويقول: أنا مختلف، أنا لا أجرح ولا أوجع، أنقذيني، لكي أنقذك.. أنا وحدي القادر على ذلك.

وترددت ثم فتحت الصندوق وخرج كائن رقيق جميل يطير حولها ويلمسها بجناحيه في كل مواجعها وإذا بها قد شفيت تمامًا وكذلك زوجها، أما هذا الكائن الجميل فهو الأمل!

الأمل في أن المريض يجد الشفاء وأن المحزون يجد السرور والمأزوم يجد الحل.

ولكن باندورا في زماننا فتحت كل الصناديق ولم يخرج هذا الأمل، وبقيت الشرور كما هي بدون أن يكون هناك أي أمل في الشفاء منها، حتى الأمل يا باندورا قد ارتدى ثياب اليأس والهوان، فكأن الأمل قد خرج مرة واحدة ولم يعد!

لا أحبه وإنما أعشقه؟

سألت الفنان الكبير يحيى الفخراني كيف نطقت الممثلة المغربية كلمة هي بذيئة في بلادها مرتين وثلاثا، أما الكلمة فهي (الحاوي)، فهم في المغرب لا ينطقونها، وحدث أن كنت في مدينة مكناس، عندما قابلتني مذيعة ومعها ميكروفون وسألتني عن الذي رأيت وعن الانطباع عن هذه المدينة المغربية الصميمة، وحدثتها عن الذي رأيته في الأسواق والقصور، وقلت إنني وقفت طويلاً مع الناس نتفرج على الحاوي، ولما نطقت هذه الكلمة امتقع لونها، وكان الحديث مباشرًا على الهواء، وعرفت في ما بعد المحظور الذي وقعت فيه!

وعرفت من يحيى الفخراني أن الممثلة المغربية تعمدت أن تجامل يحيى الفخراني وأن تجعل أهلها وناسها يضحكون على هذا المطب!

وهذا ما حدث.

وفي يوم ونحن في واشنطن مع الرئيس السادات، جاءت المذيعة المشهورة بربارة والترز ولقيت الرئيس السادات، وطبيعي أن تتحدث عن السلام ومدى سعادته، وعن عمق الصداقة التي بين الرئيس كارتر والسادات، فكلاهما رجل متدين، وكلاهما يضع الكتاب المقدس فوق دماغه أو أمام عينيه، وأن السلام هو نتيجة إيمان اثنين من الأتقياء.

وقال لها السادات إنه ينادي الرئيس جيمي كارتر باسمه الصغير وأنه ينادي رئيس وزراء إسرائيل بقوله يامناخم - بالخاء كالخواجات الذين لايعرفون أن ينطقوه بالحاء - وأن بيجين يقول له: يا أنور.

ووقفنا حول الرئيس نستمع إلى الحوار عندما سألته بربارة والترز في كلمتين، ياسيادة الرئيس صف شعورك عن الرئيس كارتر.

فقال: أحبه I Love Him.

وفزعنا، فهذه عبارة لا تقال وإنما يقال: أعجب به، أحترمه، أقدره أعظم تقدير، أطمئن إليه، أصدقه.

ونظرنا إلى بربارة ولكنها مضت في حديثها، ثم عادت فسألته مرة أخرى في نهاية الحديث، مستدرجة الرئيس على أن يردد نفس العبارة. فقالت: سيادة الرئيس أريد منك أن تؤكد لي طبيعة شعورك عن الرئيس كارتر فقال السادات: أحبه I Love him.

كأنه قال: بل أعشقه؟

وحاولنا عبثًا مع بربارة أن تحذف هذه العبارة فهزت رأسها: لا، وحاولنا وتكاثرنا عليها، فكان ردها النهائي: من الممكن أن ينسى الناس كل هذا الحديث، ولكن لن ينسوا أن الرئيس المصري يحب الرئيس الأميركي، على طريقته!

حمدًا لله على سلامة القمر!

لأن السفير المصري في جاكارتا أعطاني رسالة إلى الناس الطيبين في جزيرة بالي، وقال فيها إنني طالب في الأزهر الشريف - لا قال إنني صحافي أو أديب - وفي تلك الليلة جاءني وفد للترحيب بي وخاصة أن معظمهم قد تخرج في الأزهر، وله مطلب واحد، أن أخطب الجمعة، وقد اعتدت سنوات على ذلك عندما كنت طالبًا والمشرف على مكتبة «الإخوان المسلمين» في مدينة إمبابة، وبدأت أفكر في الذي سوف أقول. الموضوع: سهل، فالبداية والنهاية كلتاهما تقليدية، ثم أختار آية من القرآن الكريم وحديثًا نبويًا أو أكثر، والباقي لا صعوبة فيه.

وصعدت منبر مسجد مدينة دنبا سر عاصمة جزيرة بالي، وهي الجزيرة البوذية الوحيدة في الألفي جزيرة الإندونيسية، والمسلمون فيها من الحضارمة الذين نشروا الإسلام في قارة آسيا، وعندما هممت بأن أدخل في صميم الخطبة وجدت أحد المصلين قد وقف وأشار بيده ناحيتي وقال كلامًا لم أتبينه، فتوقفت أستوضح هذا السلوك الغريب، وحاولت، وحتى سلوكي هذا غير تقليدي، ولم أفلح في

أن أعرف، فقد أجلسوه، وأكملت خطبتي في اضطراب واضح، وبعد الصلاة اقتربت من الرجل سألته. قلت له: خيرًا يا سيدي.

وحاولوا منعه من الكلام، ولكني أريد أن أعرف، وعرفت وحاولت أن أفهم، والذي فهمته قليل وهو أن الروس أرسلوا سفينة إلى القمر وأن هذه السفينة قد هبطت فوق القمر، وأنه يخشى أن يؤدي سقوط السفينة إلى انكسار القمر الذي هو (طبق) هش صنعه الله لكي يضيء للمسلمين!

وتلفت على الوجوه الطيبة حولي، فلم أجد استنكارًا من أحد، أو اعتراضًا على مثل هذا التساؤل، وليس من المعقول أن أصحح كل هذه المفهومات الساذجة، فأقول إن القمر كرة مثل الكرة الأرضية، وإن الروس مهما ألقوا من الطوب والحجارة فوق القمر فلن يصيبه شيء، تمامًا كما لو سقط هذا الشيء على كوكب الأرض، وأعدت النظر إلى الوجوه فلم أجد ما كنت أتمنى، وحسمت المشكلة عندما قلت له: لقد علمت من سفيرنا في جاكارتا أن الشيء الذي أسقطه الروس كان من المطاط، فلم يحدث أي أثر في القمر.

وانفرجت الأسارير، هم وأنا أيضًا، وعدت إلى بيتي أحزم أمتعتي، شاكرًا الله سبحانه وتعالى على سلامتي وسلامة القمر!

كتبنا المقدسة في جزيرة مندناو

مرة أخرى وجدتني في حيرة وكان السكوت هو الجواب، كنت قد ذهبت إلى رئيس الفلبين ماركوس أشكو إليه من الاضطهاد الذي يلقاه المسلمون في جزيرة مندناو، فظهر عليه الضيق قائلاً: أنت تشكو، أنا سوف أشكو إليك الأسلحة التي يبعث بها الرئيس القذافي إلى بلادنا، لقد قلبت الوضع يا سيدي، ومع ذلك فأنا أدعوك اليوم أو غدًا أن تذهب إلى جزيرة مندناو لترى بنفسك، ومن الممكن إذا شئت أن يرافقك السناتور الونتو ممثل المسلمين في البرلمان.

وذهبت إلى جزيرة مندناو، وكان الطريق شاقًا، فالطائرة صغيرة والعواصف تهب مرتبكة من أرض وسماء سبعة آلاف جزيرة، وكانت الديوك في الأقفاص التي عملها الركاب تقذف بمخلفاتها علينا.

ووقفت الطائرة ونزلت الأقفاص وأصحاب الديوك، ولم أجد أحدًا في انتظاري وأخرجت ورقة من جيبي وقدمتها لسائق التاكسي الذي لم يرد، ولم يقرأ الورقة وإنما مضى، وحاولت أسأله إن كان يعرف من أنا أو أين أذهب لم يرد، ومضى، وتوقف فجأة أمام أحد الفنادق وعرفت أن هذا السائق كان في انتظاري فقد كنت الأجنبي الوحيد في الطائرة وجلست على مقعد أتطلع إلى المحيط الهادي والمراكب

الصغيرة والأجسام الرشيقة والوجوه الصفراء المرهقة، وفجأة جاء الجرسون الذي يعرف القليل من الإنجليزية وأخرج من جيبه ورقة وقرأ ورحب بي، وسألني إن كنت سعوديًا جاء لزيارة المساجد فقلت: لزيارة المساجد نعم، ولكني مصري، فأعاد السؤال: يعني سعودي؟ فقلت: نعم.

فالرجل لا يعرف إلا القليل عن العالم الإسلامي، واختفى الرجل دقائق ليظهر شخص آخر ارتدى طاقية بيضاء وهي دليل على أنه مسلم أو أنه من رجال الدين، وقال بلغة عربية: إلى المسجد؟ واتجهت إلى دولاب على يسار المنبر، ورأيت على الدولاب هذه العبارة باللغة الإنجليزية (كتب مقدسة وممنوع لمسها)، كتب مقدسة؟ ليس عندنا إلا كتاب واحد هو القرآن الكريم، واقتربت من الواجهة الزجاجية لأقرأ أسماء الكتب، ليس من بينها القرآن، وإنما هي كتب في التاريخ الإسلامي وفي التفسير وكتاب (كليلة ودمنة).

هل أقول له؟ وبأية لغة؟ وإذا كان الرجل لا يعرف القراءة ولا يجرؤ على فتح الدولاب فلن يغير من حاله أن يعرف، وسافرت إلى اليابان دون أن ألتقي الرئيس ماركوس أجيبه عن سؤاله: وكيف حال المسلمين في بلادنا!

أن تلعب صغيرًا: هذا أسلم

الحيوان يلعب والإنسان أيضًا.

واللعب نشاط طبيعي، أو صرف لفائض الطاقة عند الإنسان، وفي اللعب عمل إيجابي وفيه أيضًا خيال، وفيه تعبير صامت. وأحيانًا نجد الطفل يتحدث إلى اللعبة، ويلفت نظر أبويه، ويشتركون معه، فاللعب نشاط اجتماعي أيضًا.

واختلفت الألعاب عن أيام زمان، ونحن صغار كان الواحد منا يركب عصا متوهمًا أنها حصان، وكان أهلنا يهنئون أنفسهم بأننا سوف نصبح فرسانًا، أما اليوم فيكفي أن ندخل محلات اللعب لنرى الثراء والنبوغ الذي يعيشه طفل اليوم، وهذا إذا لم يكتف بألعاب الكومبيوتر والموبايل والبلاي استيشن.

وكان للزعيم النازي هتلر نظرية وهي: القوة عن طريق المرح، أي عن طريق الألعاب الرياضية والفروسية.

وكان هتلر يسمي ذلك لعبًا، والحقيقة أنها تدريبات عسكرية أو تدريبات على البطولات العسكرية من خلال الاستعراضات والألعاب؛ فاللعب غريزة ولكن اللعب العنيف هو تطوير لذلك!

وأهل اليابان يقولون إنهم تأخروا في اللعب، فتقاليدهم تحتم عليهم أن يكونوا رجالاً في سن صغيرة، وشكوى اليابانيين: أنهم دخلوا مرحلة الرجولة قبل أن يشبعوا من الطفولة، ولذلك فمن المألوف أن نجد الرجل الياباني إذا تحدث تعمد أن يكون صوته غليظًا، بينما صوت المرأة اليابانية ناعم حريري لا يمس أذنًا – وهذه هي أهم معالم الأنوثة؟!

ولكن اليابانيين هم أبرع من قدم لعب الأطفال؛ فأطفال العالم يلعبون.. يلعبون على الطريقة اليابانية، بينما أطفال اليابان لا يلعبون.. لقد أرغمتهم التقاليد على أن ينسوا أنهم أطفال، أو عيب أن يكونوا أطفالاً، فالتقاليد اليابانية كانت كالتقاليد الرومانية والتقاليد النازية: الرجولة المبكرة، والروح العسكرية، أما اللعب واللهو، فقد جاء في مرحلة متأخرة، أي أن الرجل الياباني الذي أرغموه على الرجولة، يستأنف اللعب واللهو والخمر والإدمان.

وفي كل مرة أسافر إلى اليابان أسمع شكوى واحدة: غلطنا عندما فرضنا على أنفسنا الرجولة المبكرة، ولذلك نحن حريصون على أن يلعب أطفالنا وأن يعيشوا سنهم والقاعدة: من لا يلعب صغيرًا لابد أن يلعب كبيرًا.. ولعب الكبار أخطر كثيرًا!

وآفة هذا الزمن: الصحف!

أمير الشعراء أحمد شوقي، يوم افتتاح نقابة الصحافيين في مصر، قال:

لكل زمان مضى (آية) — وآية هذا الزمان الصحف

لسان البلاد ونبض العبا — د وكهف الحقيقة صوت الجيف

ثم التفت إلى الصحافيين الشبان، وقال لهم:

فيا فتية الصحف صبرًا إذا — نبا الرزق فيها بكم واختلف

فإن السعادة غير الظهور — وغير الثراء وغير الترف

ولو عاش شوقي لجعل «الإنترنت» آية هذا الزمان، ولقد لمس مشكلة الصحافيين في زمانه وزماننا، والذين يتقاضون أجورًا هزيلة: فهم الفقراء المشاهير. واستأذن أمير الشعراء في وضع كلمة أخرى بدلاً من «آية» هذا الزمان، فأقول: وآفة هذا الزمان الصحف. ولن ينكسر البيت. ويكفي أن تقرأ الصحف الأمريكية ومجلاتها الصفراء ثم الصحف في مصر أيضًا، أما كلمة «الجيف» في أبيات شوقي فمعناها الظلم.

ويوم احتفل أمير الشعراء شوقي بالكاتب الكبير فؤاد صروف (1852–1927) عندما رأس تحرير مجلة «المقتطف»، قال:

رأى الله أن تلقى إليك صحيفة نزَّهتها عن هوشة وكذاب

ولم تتخذها آلة الحقد والهوى ولا منتدَى لغوٍ وسوق سباب

تبتلت للعلم الشريف كأنه حقيقة توحيد وأنت صحابي

وتلقى شوقي أشكالاً وألوانًا من النقد والتجريح بقلم الأستاذين العقاد والمازني. فلم ير له العقاد ميزة كبرى، وكان العقاد ظالمًا. وأذكر أن شاعرًا ظريفًا اسمه محمد حمام ألقى قصيدة أمام العقاد، فسأله العقاد: «لمن هذه القصيدة يا مولانا؟»، فقال حمام: «إنها لشاعر شاب مغمور».

فأبدى العقاد سعادته وراح يشرح مواطن الجمال فيها، وكانت المفاجأة لمَّا قال له حمام: «إنها لأمير الشعراء يا أستاذ!»

فغضب العقاد وطرده من مجلسه!

عبارة هادئة عن رحلة مخيفة!

قرأت يوميات رائدة الفضاء الفرنسية كلودي هينير، هذه المذكرات لا علاقة لها إطلاقًا بابتسامتها الكوكتيل من الفرحة والإصرار والقلق والخوف والتحدي، إن يومياتها مرهقة للأعصاب رغم أنها تحكيها بمنتهى الهدوء، فهي تخرج من تجربة لتدخل في تجربة أخرى، مائة تجربة، ساعات متصلة من الضبط والربط بين الأجهزة والخرائط والمعادلات الرياضية، ومئات الزراير. تقول كلودي: الكتب غير التجربة، والتجربة على الأرض غير التجربة في الجو، بعيدًا عن الأرض ذهابًا واستقرارًا ودورانًا وهبوطًا، وأصعب من الهبوط الاستعداد لذلك، وأصعب من الهبوط الإلكتروني، الهبوط اليدوي عندما تتعطل الأجهزة لأي سبب، وأصعب من الهبوط ومن كل ذلك أن تكون هي قائد الرحلة والمسئولة وحدها عن النجاح والفشل.

لقد كان الاستعداد لرحلتها في الفضاء أن تنطلق من روسيا، وقد استعدت لهذه الرحلة في تدريبات في فرنسا وفي ألمانيا وفي هولندا ثم في أمريكا، وهناك نظريات وتقاليد مختلفة، ولكن الأسس العلمية واحدة.. ثم يجيء الأطباء كل شهرين لتحليل ومراجعة كل شيء في وظائف الجسم الإنساني والعقلي، ويقتضي الأمر تغيير الطعام

والشراب وساعات النوم، وفي نفس الوقت يجب أن تكون في حالة نفسية جيدة.

وفي اليوم السابق على الانطلاق إلى الفضاء يجلس الرواد معًا لمشاهدة فيلم رومانسي هادئ حالم، لا علاقة له إطلاقًا بسفن الفضاء والفضاء، ويتعلمون التركيز، لدرجة أن رائد الفضاء ممكن أن يستغرقه الفيلم حتى لا يدري بشيء آخر، وفي سفن الفضاء يجب أن يستغرقه العمل حتى ينبهوه بأن يتناول طعامه أو شرابه أو يأوي إلى الفراش.

أما قبل إطلاق السفينة فكل الرواد يحشرون أنفسهم في مقاعدهم، ويتدربون على خلع ملابسهم وارتدائها في حيز ضيق بدون المساس بالأجهزة الدقيقة في كل مكان، وهم عادة يدخلون السفينة التي استقرت فوق صاروخ مليء بالوقود وأن يظلوا في مقاعدهم قبل الانطلاق بساعتين يستمعون إلى موسيقى هادئة، ثم الانفجار العظيم عندما تصدر الأوامر من المتابعة الأرضية بالانطلاق، أي بارتفاع الصاروخ وفوقه سفينة الفضاء إلى أعلى فرارًا من الجاذبية الأرضية، ثم الدوران حول الأرض.

إنها براعة عظيمة أن تروي رائدة الفضاء قصتها بهدوء مع أن الذي تتحدث عنه يجعل شعر الرأس يقف ويقع من شدة الخوف!

وما تزال الأطباق تطير!

سألني منظم برنامج علماء الأطباق الطائرة: تحب؟

قلت: أحب أن أشارك بالفرجة والرؤية والكتابة.

وانعقد مؤتمر علماء الأطباق الطائرة في جنوب فرنسا، ولم أتمكن من المشاركة لأسباب عائلية طارئة، ولكن تلقيت كل الأبحاث والشكوك والردود، فقد التقى أربعون من الباحثين عن حقيقة الأطباق الطائرة التي رآها أكثر من ألفي شخص في القارات الخمس: من المهندسين والأطباء والطيارين والباحثين في الفلك، وعندهم صور، وضعف هذا العدد في أمريكا وحدها، بل إن الذين بحثوا في التاريخ القديم يقولون إن هيردوت عندما جاء إلى مصر رأى كرات من النار، أو كأنها النار في مدينة منف، سجلها ولم يجد لها تفسيرًا، كما فعلنا نحن بعد ذلك بخمسة وعشرين قرنًا: رأينا وصوَّرنا وسجلنا وما زلنا نبحث لها عن تفسير، وعلماء الفلك ينكرون هذه الظاهرة، أو يتحفظون حتى عندما أعلن بعض رواد الفضاء أنهم رأوا كرات من النور تلاحق سفنهم من أمام ومن خلف وعن يمين وشمال، بل وعندما تسللت هذه الكرات إلى داخل سفن الفضاء فارتبكت العقول الإلكترونية، وعندما عادوا إلى الأرض أقسموا على الصمت حتى لايصيبوا الناس بالبلبلة!

ولكن حدث أن انتشرت شائعات في أمريكا بأن عددًا من الكائنات الفضائية قابلوا أيزنهاور، وكان ما بينهم من كلام وأسرار. وقد وعد الرئيس كارتر الشعب الأمريكي إذا نجح في الانتخابات أن يطلعهم على الحقيقة، ونجح ولزم الصمت، وأعاد الرئيس كلينتون هذا الوعد إذا نجح، ونجح مرتين، ولم يقل كلمة واحدة!

قالت لي الزميلة الإيطالية دانشيانا دانجيلو التي قدمت نيابة عني كتابين لي هما «الذين هبطوا من السماء» و«الذين عادوا إلى السماء»، ومعهما اعتذاري عن تلبية الدعوة. قالت لي: إن أحد الحاضرين تساءل عن صحة ماجاء على لسان أحد رواد الفضاء الأمريكيين عندما زار المتحف المصري، ورأى نموذجًا لطائر فقال: ليس طائرًا وإنما هي طائرة شراعية. وقال إنه يصدق تمامًا أنها طائرة شراعية، وأن لديه أسبابًا قوية لذلك، وسوف يعلن عنها بعد زيارة المتحف المصري في الكريسماس القادم.

أما رأيي في الرسالة التي بعثت بها فهي أنني لا أستبعد أن تكون الأطباق الطائرة أجهزة دقيقة من نوع لا نعرفه، ومن مكان لا نعرفه ولأسباب لم نعرفها بعد، وليست خرافات كما قال كثير من العلماء المتشككين، أما أسباب الشك فهي أنه لاتوجد لدينا أية معلومات عن كواكب تعيش فيها كائنات عاقلة، ولو كانت فهي تبعد عنا مئات السنين ولا يوجد سبب معقول لأن تسافر الأطباق هذه المسافة الطويلة لتبقى لحظات ثم تعود. لماذا جاءت؟ وماذا وجدت ولماذا عادت؟، وألف لماذا أخرى!

لأنهم متعلمون فقراء!

من هنا كانت البداية - من ولاية كيرالا في أقصى الجنوب من الهند، فهذه الولاية الصغيرة هي أعجوبة تاريخية، فليس فيها أميون، وهي فقيرة، وأهلها ساخطون على حالهم، ولذلك هاجروا إلى كل دول الخليج، والذين قرروا البقاء اتجهوا إلى اليسار إلى الشيوعية، ففي سنة 1957 كانت أول حكومة شيوعية أفرزتها الديمقراطية الهندية، وكان من حظي أن قابلت أول رئيس للوزراء سنة 1959، السيد نامبودريباد، وكتبت وكتبت، وفي ذلك الوقت طردت الصين الدلاي لاما وأسكنته الهملايا، وكان لابد أن أذهب إليه، وذهبت، ووجدت الصحف الهندية تهاجمني بسبب ما كتبته عن شوارعها، ففزعت وتخيلت لو أن كل هندي أمسك حجرًا وألقاه فوق دماغي لقام هرم من 700 مليون حجر - بعدد سكان الهند.

فقررت أن أذهب إلى جزيرة سيلان أكتب عن العشرين عامًا التي أمضاها عرابي باشا والزعماء المصريون، ووجدتني بالقرب من إندونيسيا ومن أستراليا ومن الفلبين ومن هونج كونج ومن اليابان ومن هاواي ثم من أمريكا - فكانت رحلتي حول العالم في 228 يومًا!

وخطر لي أخيرًا أن أعود إلى حيث بدأت، فأرى ولاية كيرالا التي

مساحتها حوالي أربعين ألف كيلو متر وعدد سكانها حوالي ثلاثين مليونًا وتتكلم لغة اسمها (مالا يالم)، وترقص كاثاكالي وشاركت في أول مظاهرة شعبية تطالب بمزيد من الحرية، وكانت مياه السيول تصل إلى ما دون الركبة وكانت تجري بيننا الثعابين في حالة فزع فقد أخرجتها المياه من الجحور.

ووسط الزحام والثعابين والمياه في لون البن وجدت إلى جواري صحفية هندية تقول: والآن ما رأيك في المرأة الهندية؟!

والسؤال يدل على أن الظروف عادية وأن شيئًا لم يحدث لنا، لا مياه ولا أعاصير ولا ثعابين ولا مظاهرات. قلت لها: ولكن ما معنى هذه المظاهرات، إنها أكثر من نوع، هنود ومسلمون شيعة، وأناس معترضون على كل ذلك!

وكان ذلك كافيًا لأن تتركني وتمضي في سبيل آخر.

سألوني: ما الذي تريد أن تراه في كيرالا؟ قلت: كل ما رأيت قبل ذلك منذ أكثر من أربعين عامًا، فيومها كنت أراها بعين واليوم سوف أراها بعينين وتجارب طويلة في السفر في القارات الخمس.

وسألت عن مكتبة في العاصمة ترفندروم والآن اسمها: ثيروفنا نثابورام. قالوا: ماتت صاحبتها وتديرها الآن حفيدتها ويدهشك اسمها. فقلت: وما اسمها. قالوا أنيسا منصورة.

قلت: هذه تهمة، ولكن سوف أرى وكلها مادة لكتابة جديدة!

أساتذتنا: حيوانات وحشرات!

هذا علم جديد.. اسمه: بيوممتكس.. لا أعرف كيف نترجمه، فمقطع بيو يعني الحياة.. البيولوجيا.. والبيوجنيك.. والبيوكمستري - علم الكيمياء العضوية.. ولكن معنى العلم الجديد هو أن نستفيد من ملاحظتنا للحيوانات.. ونحاول أن نفهم وظائفها وأعضاءها وأن نقلدها.. أو ننقلها إلى حياة الإنسان.. فمن أذن الوطواط وشوارب الفأر والخلايا الضوئية والخلايا الصوتية عند الثعابين.. ومن لسان الثعبان نفسه، فالثعبان ليست له أذنان، ولكن لسانه مثل هوائيات الراديو والتلفزيون تنقل إليه الموجات الصوتية.. وكذلك أشعة الرادار عند الخفاش وقرون الاستشعار في جسم الفأر..

فالعلم الجديد «يقلد» أو ينقل أو يوظف هذه الخصائص لخدمة الإنسان..

وأهم ما شغل هذا العلم الجديد: وادي النمل.. أو بيوت النمل.. والذي بهر العلماء: كيف يستطيع النمل أن يصلح بيوته. وما أصابه بسرعة.. والنمل ليس كالنحل.. فالنحل له ملكة، ولكن مملكة النمل ليست لها ملكة ولا زعيم.. فكيف يستطيع كل النمل أن يتخذ قرارًا واحدًا؟ كيف يعرف بيته؟ وكيف يبنيه فورا؟ كيف يمكن الاستفادة

منه في النقل والمواصلات والطيران أيضًا؟

وكذلك الدبور.. والإسكويرل.

هل يمكن أن نسميه علم المحاكاة..

هل سوف نبقى نقول: إنه أوهى من خيوط العنكبوت. إن العنكبوت يفرز هذه الخيوط الرفيعة التي يتصيد فيها ضحاياه. وإن علماء الكيمياء يؤكدون أن خيوط العنكبوت إذا عولجت بشكل من الأشكال، لا تستطيع القنابل أن تمزقها..

إن الإنسان قد انشغل بنفسه كثيرًا، ولا يزال يرى أنه وحده مركز الكون، مع أن الإنسان قد تخلى عن هذا الوصف الخرافي من القرن السادس عشر، ومنذ عباقرة الفلك الذين زعزعوا كوكب الأرض عن أن يكون مركز الكون، وأن يكون الإنسان سيد الكون.. إن علماء البيوميكا يدعوننا أن نتجه إلى الحيوان..

قل لي من فضلك: ما المعنى؟

لا أراك الله مكروهًا في عزيز لديك.. وقد أراني الله مكروهًا في عزيز.. وأوجعني فراقه.. وقد رأيت مكروهًا في اللحظات الأخيرة لعدد من الأعزاء: العقاد وطه حسين والحكيم وإحسان عبد القدوس والرئيس السادات وعبد الوهاب وأم كلثوم.. وما لا يوصف ولا ينسى عندما ماتت أمي.. ما هذا؟

ومشينا إلى جوار توفيق الحكيم في جنازة ابنه الوحيد الفنان إسماعيل الحكيم.. ومشينا في جنازة كامل الشناوي.. ياربي ما هذا العذاب.. ما طوله؟ ما عرضه؟ ما عمقه؟ ما عمره؟ ماهذا الذي نحن فيه وإليه ومنه؟ إن شيئًا غريبًا يتسرب من هذا الكون.. إن الكون يصفي نفسه.. إنه ينساب بعيدًا عنا.. يتسلل منا بعيدًا عنا.. كانسياب حوض ماء.. والحوض له فتحات يتدفق منها الماء.. الكون يهرب.. يتهرب.. يهددنا نحن أيضًا.. إن كل من مات أخذ منا.. اقتطعنا.. سلبنا.. هددنا .. كنا امتدادًا صرنا جزرًا معزولة بالموت.. بالأسى.. بالحزن. إلى أين يذهب الأعزاء؟ لقد داعبنا توفيق الحكيم وهو على فراش الموت فقال: لا تتأخروا.. أسرعوا سوف تجدوننا في انتظاركم في جهنم مع العقاد وطه حسين.. يا أنيس لا تتأخر.. هناك أحسن من

هنا.. قل لأصدقائنا أيضًا. وكانت في توفيق الحكيم بقايا قوة، ولذلك كان يضحك وهو يقول.

هل هذا هو الذي يقول؟ هل هو الذي يضحك؟ أهو الموت يقول ويسخر منا ومن الأحياء ومن الحياة؟

هل الذين لا أصدقاء ولا أعزاء لهم، أحسن حالاً.. هل الذي لا أحب ولا كره، ولا خاف ولا أمن، أحسن حالاً؟ هل الحب جريمة عقوبتها مؤجلة، وسدادها عندما نكون على فراش الموت.. موتنا أو موت أعز الناس علينا؟

لقد وقفت طويلاً وكثيرًا بالقرب من فراش أعز الناس.. فلا وجدت معنى ولا أحدًا أسأله.. ولا أحد يجيب، ونسيت منذ أيام في حزني العميق والجنازة الطويلة التي لم تنقطع أن أبكي على الفقيد الغالي على عمره وعمري.

ولم أبك. لقد جفت الدموع ولم يبق إلا أن أخرج عيني في يدي ثمنًا لمن يقول لي: وما المعنى؟!

فلما رأى المريخ غلبه النوم!

رأيت كوكب المريخ كثيرًا، وكدت ألمسه بيدي، فقد تطلعت إليه من مراصد كثيرة. أما التلسكوب المتواضع الذي عندي، فكان يزيدني شوقًا إليه. ولكن لا أعرف ما الذي يجعلني أتعلق به هكذا. ربما لونه، ربما قربه، ربما ما أشعلنا فيه من خيالات حقيقية وخرافية. إنه يبعد عن الأرض 225 مليون كيلومترًا. ولا يزال هدفًا وأملاً أن يهبط عليه الإنسان، وأن يعيش سنوات فوق سطح الأرض أو تحتها، أو في سفينة فضاء تدور حوله، وليس قريبًا منا كالقمر، فالرحلة إليه ذهابًا وإيابًا تبلغ سنتين، وكلها مشاكل وأسرار وألغاز. أما سفن الفضاء فذهبت ودارت وهبطت وبحثت وحللت التربة وأرسلت صورًا وجداول. وعرفنا ما لم نكن نعرف، ولكن لا تزال هناك أسرار كثيرة، أهمها: الماء. وعرفنا أن هناك بقايا جداول مائية. الماء جف. أو تجمد تحت التربة. ولكن آثاره باقية، وكل ما نتمنى أن نعرفه الآن هو إن كانت هناك حياة.. أي شكل من أشكال الحياة. لأن هذه الحياة هي التي انتقلت إلى كوكب الأرض في داخل النيازك والشهب واستأنفت الحياة عندنا وتعددت وانتعشت حيوانًا ونباتًا..

ونعرف أنه يوجد أيضًا في القطب الشمالي جبال جليدية. هذه الجبال من الممكن أن تراها المراصد الفلكية بسهولة.

وقد أعلنت المراصد أن المريخ قد اقترب منا لأول مرة منذ 56 ألف سنة. وكان من الممكن رؤيته بأي تلسكوب متواضع. وحاولت بتلسكوبي المتواضع، ولكن السحب والتراب والرطوبة وأضواء المدينة حرمتني من هذه الفرصة السعيدة، وبعد 13 سنة سوف يقترب المريخ مرة أخرى ليكون على مدى سبعين مليون كيلومتر من الأرض.

قال العراف محمد شوقي أبو المكارم إن اقتراب المريخ من الأرض سوف يؤدي إلى مزيد من الصراعات والحروب، لأن المريخ هو إله الحرب.. وذهبت أستطلع رأي العرافين وقرأت ما كتبه العرافون. إنهم لم يتفقوا على هذه التوقعات؛ لأنه في التنجيم لا يعتمد في معرفة الأحداث على كوكب واحد.. وإنما على حركة عدة كواكب في برج من الأبراج.. فلا يمكن أن يحدث لكل الناس نفس الشيء.. إلا إذا تلاشت الكواكب ولم يبق إلا المريخ..

قرأت ما قاله البروفسور إدمون كلاميكو عالم الفلك، فقال إنه جلس وحده يتأمل شكل المريخ لامعًا متألقًا هناك وأسعده ذلك.. واستغرق في النوم، لا في الأرق والحقد والاستعداد للقتال!

خيول ورجال وزهر القمر!

في حفاوة بالغة تقدمت مني إحدى بنات الجيشا وفي يدها طبق به لفافة فضية، يخرج منها غصن أخضر، أحمر. هدية، عادة يابانية.

ووضعت هذا الغصن في كتاب عن الطهو في اليابان، وكيف تكونين جيشا.. وهن بنات يابانيات مائة في المائة يقمن بخدمة الضيوف على الطريقة اليابانية.. فهي قصيرة نحيفة وقد وضعت البودرة البيضاء الكثيفة على وجهها وصبغت حاجبيها ورسمت عينيها بالكحل الأسود، أما شعرها الأسود فقد اتخذ شكلاً تقليديًا ملفوفا مشدودًا.. وهي ارتدت الكيمونو الضيق الذي لا نعرف كيف تتحرك فيه ولذلك كانت خطوتها قصيرة.. فهي لا تمشي وإنما هي تقفز.

وقد ارتدت المرأة الكيمونو لتخفي الاعوجاج في ساقيها. وقد اعوجت ساقاها؛ لأن أمها كانت تحملها على ظهرها منفرجة الساقين سنوات. ولما جاء الأمريكان إلى اليابان ودفعوا المرأة إلى العمل، لم تعد تحمل ابنها على ظهرها سنوات.. فاستقامت السيقان.

ولم أعرف إلا أخيرًا معنى هذا الغصن الصغير.. إنه غصن الكرز. وله حكاية في أساطير اليابان.. يقولون إن القمر يلقيه على البنات

الجميلات.. ويدحرج القمر على إحدى شماعاته نقطة فضية تتحول إلى حصان.. ونقطة فضية أخرى تتحول إلى بنت جميلة.. ثم يقول القمر لسعيد الحظ : هذه البنت الجميلة اسمها «زهرة القمر»، هي أمانة عندك فإذا بلغت العشرين من عمرها أرسلنا إليها الحصان ليتحول إلى نقطة فضية، وهي أيضًا، ثم يصعدان معًا إلى القمر.. ومرة كل سنة يقومان بزيارة الأب والأم اللذين قاما برعاية البنت الجميلة وحصانها البديع..

والمعنى: أن أجلس في ضوء القمر.. وأنتظر العروس والحصان. بشرط أن أعلن حمايتي لهما. وأن أكون صابرًا على العناية والرعاية والصبر.. على فراقهما بعد هذه العشرة الطويلة.. ولا أفكر في الزواج من هذه الجميلة. يكفي أن أراها وأتملى جمالها وأن أتجمل بالصبر على فراقها.

وإذا جلست في ضوء القمر ولم يلق القمر شعاعه ولم تظهر النقطة البيضاء، فمعنى ذلك أنني لن أعيش عشرين عامًا– ولذلك خاف الناس أن يجلسوا في ضوء القمر.. أو يجلسوا ثم يستغرقهم النوم فلا يروا العروس ولا الحصان!

لا يهم اسمها.. فهي جميلة!

بعض الجزر الجميلة أسماؤها ليست كذلك: جزيرة كابري ومعناها جزيرة الماعز.. إما لكثرة الماعز، وإما لأن الطرق الجبلية ضيقة، لا يقوى على السير فيها إلا الماعز.. وجزر كناريا ومعناها جزر الكلاب.. لكثرة الكلاب أو لقسوة الحياة فيها، عندما اكتشفت في القرن السابع عشر.. ثم جزر جالا باجونس، وهي إحدى المحميات الطبيعية، ومعناها جزر السلاحف.. لأن فيها سلاحف ضخمة نادرة. وإلى هذه الجزر جاء العالم الكبير دارون وأمضى فيها أسبوعين. هذان الأسبوعان غيَّرا تاريخ الإنسانية والحيوانية. وكانت ملاحظاته العبقرية التي جاءت في كتابه الشهير «أصل الأنواع».

وجزر المالديف يقال إن معانيها: ذيبة المحل - كما قال ابن بطوطة - ويقال جزر الأسماك.

وقد رأيتها لأول مرة سنة 1959 وكان من المفروض أن أسافر إليها اليوم بدعوة من صديقي الرئيس عبد القيوم، ولأسباب خاصة لن أتمكن من السفر إليها إلا عند نهاية العام. وفي سنة 1959 ذهبت إلى جزيرة سريلانكا «سيلان» أو سرنديب، وهو اسمها القديم، لكي أعرف ماذا حدث وماذا فعل الزعماء المصريون بقيادة أحمد عرابي

باشا في عشرين عامًا في هذا المنفى، وكيف أن عرابي باشا كان يعلم اللغة العربية والقرآن الكريم، وكيف أنه جعلهم يرتدون الطربوش. وهو الذي نقل إليهم أنواعًا من الأطعمة المصرية: الكعك والبسكويت والكنافة والقطايف.. وقد أرسلت صحيفة «التايمس» إلى عرابي باشا مندوبها ليسأله: هل حرام أن تتعلم الإنجليزية؟ قال: لا .. ثم سأله: هل حرام أن يكشف طبيب مسيحي على زوجاتك؟ فقال: لا .. رجل متحرر مستنير..

ومن الضروري أن أقرر اليوم أو غدًا إلى أين سوف أسافر: إلى جزيرة الماعز أو جزيرة الكلاب؟!

أخذت الشر وراحت!

في التراث عندنا إذا انكسر كوب أو زجاجة، فإننا نقول: أخذت الشر وراحت.. أي أن هناك علاقة بين انكسار الكوب والشر، فهي إما طردت الشر، أو أن الشر كان جاهزًا لأن يأخذ منا أكثر، فاكتفى بهذا الكوب.

وعندنا مثل، إذا انكسر شيء كبير نقول: اللي ييجي في الريش بقشيش، أي الذي يصيب الريش ولا يصيب الجسم فهو: بقشيش، يعني الحمد لله؛ أنه لم يصب الجسم وإنما أصابه من الظاهر إصابة طفيفة.

وفي المطاعم اليونانية تجد أمامك كومة من الأطباق البلاستيك، هذه الأطباق جاهزة لكي يحطمها الزبائن وهم يرقصون، أو وهم جالسون، والسبب هو: إنفاق فائض المرح أو الطاقة، أو تفريج أو تفريغ التوتر، والمعنى أيضًا أن هذه الأطباق المكسرة تطرد الشيطان والشر.

وفي التراث المصري نقول: لابد أن نكسر وراءه قلة، أي نكسرها وراءه ابتهاجًا بأنه خرج، فلا يعود، أو نرجو ألا يعود!

وعند الروس، إذا شربوا فمن عاداتهم أن يحطموا الأكواب التي شربوا فيها.

وفي أفراح اليهود لابد أن يكسروا كوبًا، لابد، ويكون ذلك طردًا للأرواح الشريرة بعيدًا عن زفاف العروسين وفرحة الأهل بهذا الحادث السعيد، أو يكون السبب هو أن يتذكر اليهود دائمًا أن «هيكل سليمان» قد انهدم، وأن ذلك حادث عميق يجب ألا ينسوه، بل إن المتطرفين اليهود لا يكتفون بذلك، وإنما يكسرون جانبًا من الحائط، ويكون ذلك واضحًا حتى لا ينسوا ما أصاب الهيكل من خراب عدة مرات.

وقد رأيت في مدينة «راباللو» على شاطئ الريفيرا الإيطالي بيتًا قديمًا، والبيت بلا أبواب ولا نوافذ، ولم يكتمل فيه أي شيء، بل الهواء والماء والزمن قد حطم الجدران، هذا البيت يسمونه «بيت الأمل»، أي الأمل في بنائه وتزويده بالأبواب والنوافذ وطلائها، فهو أمل كل إنسان أن يصلح ما انكسر، وأن يبني ما انهدم.

فالإيطاليون تعمدوا ذلك لكي يكون عند الناس أمل في الذي هو أكمل وأجمل!

تمنياتي ألا تفيق من السعادة!

كنا نضحك كثيرًا ونحن صغار، لم يكن هناك سبب قوي لذلك، وإنما نحن قد دغدغنا كل شيء حولنا، حتى راح يضحك لنا.. أو يضحك منا.. ونحن نندهش عندما نرى الصغار يضحكون ونسأل ولا نجد أسبابًا قوية للضحك، إنهم يضحكون، كما كنا، لسبب ولغير سبب..

وقد أفلح الإعلامي الكبير وجدي الحكيم في أن يستضيفني مع المطربة الصديقة شادية، وكان المفروض أن يحاورنا، فترك لنا الميكرفون ساعة، هي تقول وأنا أضحك.. وأنا أضحك وهي تضحك.. وبعد أن استمعنا إلى التضاحك معًا، اندهشنا كيف أننا هكذا قادرون على الضحك والإضحاك ساعة وراء ساعة، أما الذي كنا نقوله، فكلام.. أي كلام!

ومن الغريب أن هذا التسجيل عمره أكثر من عشرين عامًا، ومع ذلك فالكثير من المستمعين يطلبونه، فقد أذاعه وجدي الحكيم أكثر من ثلاثين مرة، وفي يوم رأيت أن أستمع إليه لأعرف ما الذي فيه يعجب الناس.. فلم أجد شيئًا.

ولم أكن أعرف أننا كنا (عيال) إلى هذ الدرجة، أنا أضحك وهي تضحك.

وقالت لي شادية إنها عندما تكون في حالة من الضيق أو القرف أو الإحباط، فليس أمامها إلا هذا التسجيل لتستمع إليه وتضحك على الذي كان يضحكنا.. تمامًا كما ننظر إلى ملابسنا ونحن صغار.. ونندهش كيف كنا صغارًا إلى هذه الدرجة.. أو كيف ندخل في هذه الملابس ونرضى بشكلها ولونها.. فلم نكن نندهش لذلك ونحن صغار.. ونضحك أكثر عندما نجد أمهاتنا يحتفظن بأحذيتنا الصغيرة أو بخصلات من شعورنا أو بصورنا أو يمكن عجائب سلوكياتنا.. كنا نضحك أيضًا.

وهذا التسجيل ليس إلا صورة من أيام الشباب أي الطفولة المتأخرة.. وعندما يستمع إلينا الناس، فإنهم يشاركوننا في الدهشة لما كنا عليه.

وفي يوم استمعت أم كلثوم إلى هذا التسجيل، وكلمتني هاتفيًا وقالت لي: أنا لو كان الأمر بيدي لاتخذت هذا الشريط نموذجًا للسعادة.. فالضحك صحة والضحك الكثير منتهى الصحة والعافية، وكمية الضحك في ساعة واحدة تعادل ما سوف يضحك بعد ذلك بقية حياتك!

وقال لي الشاعر الظريف مأمون الشناوي: استمعت إلى الشريط.. تمنياتي لكما ولنفسي ألا نفيق من السعادة!

كيف تدهشنا هذه القرصنة؟

القراصنة من ساحل الصومال هاجموا سفينة أمريكية ألمانية الصنع، أطلقوا عليها القنابل اليدوية والصواريخ، أصابوا جانبًا منها، وهرب الركاب إلى المطاعم، السفينة كانت في طريقها إلى كينيا، فغيرت مسارها إلى جزر سيشل، ولم يصب أحد من ركابها المائة والخمسين، في غرفهم الأنيقة الفاخرة.

أما القراصنة فكانوا خمسة يركبون زورقًا، وقبل ذلك نجحوا في خطف سفينة للأمم المتحدة، ولم يفرجوا عن بحارتها إلا بعد أن دفعوا فدية، وقبلها سفينة تجارية، ولكن هذه السفينة الأمريكية التي زنتها عشرة آلاف طن وطولها أربعمائة قدم واسمها «سبورت اسبريت» كانت مزودة بأسلحة موجعة، فهي تطلق أصواتًا صارخة تصم الآذان، وتصيب بالشلل كل من يتعرض لها، وقد أطلقت هذه القنابل الصوتية على القراصنة فأعجزتهم عن الحركة، بل إنهم انبطحوا في زورقهم يسدون آذانهم ويصرخون من الألم، وهذه الأسلحة تستعملها أمريكا في العراق لتفريق المظاهرات، بدلاً من القنابل المسيلة للدموع، فهذه القنابل الصارخة فادحة الألم.

وفي الشهر الماضي أفلح القراصنة في الاستيلاء على سفينة تحمل معونات من الأمم المتحدة، لمساعدة ضحايا المد البحري «تسونامي» على شواطئ الصومال التي يبلغ طولها أكثر من ألف ومائتي كيلو متر، خالية تمامًا من السكان ومن قوات الأمن، ولذلك كانت مسرحًا ومرتعًا للقرصنة.

وقد اندهش الناس لوجود هذا النوع من القرصنة التي انقرضت والتي كانت تسود البحار من مئات السنين، ودهشة الناس تدل على أنهم قد نسوا أن القرصنة لا تزال موجودة في أبشع صورها: استيلاء الدول الكبرى على الدول الصغيرة وسرقة حياتها ومواردها، ثم لا تطلب فدية، لأنها عندما استولت على الأرض والناس قد تقاضت فديتها في نفس اللحظة بدون أن تفرج عن أحد، وبدون أن تترك الأرض لأصحابها والثروات لمستحقيها: أمريكا في العراق اتخذت نموذجًا دمويًّا وحشيًّا، ونحن نقرأ هذه الأيام اعترافات السفير البريطاني في أمريكا الذي حضر الجلسات السرية بين رئيس وزراء بريطانيا توني بلير والرئيس الأمريكي بوش.. السفير يؤكد أن بلير ساير الرئيس الأمريكي ودفعه إلى هذه الحرب التي لا مبرر لها، وكان في استطاعته أن يؤجلها، أو يؤخرها، ولم يكن في استطاعته أن يوقف القرار الأمريكي الذي اتخذه بوش ومساعدوه!

الشاعر السجين

كثير من الذين طالت إقامتهم في السجون لا يريدون أن يبرحوها. لقد اعتادوا الحياة بين السجناء، وعلى الطعام والشراب والانضباط وسوء الظن بالناس خارج السجون: فهم يرون أن «الناس اللي جوه أفضل من الناس اللي برّه» فالجواني أفضل من البراني. وكثيرًا ما وقف السجين الذي أطلق سراحه أمام السجن في ذهول كالسمكة التي خرجت من الماء.

بعض السجناء اختار بكامل حريته أن يعود إلى السجن والماضي الذي اعتاد عليه. وقد نشرت «الشرق الأوسط» أن سجينًا إسبانيًّا توسل أن يعود إلى السجن الذي أمضى فيه خمسين عامًا، فقالوا له من الممكن أن يعينوه عاملا، فرفض لأنه يريد أن يكون سجينًا، وكان صعبًا عليهم وضعه في السجن بلا ذنب جناه، فارتكب الذنب.

شيء من مثل ذلك وجدته في مدينة بورتو فينو الإيطالية الجميلة، فهناك سجن به كافتيريا، والذي يدير السجن والكافتيريا معًا هو السجين. والسجين شاعر، نظم قصيدة قذف عنيف في أحد الزعماء السياسيين وحوكم، وتقرر سجنه، فتدخل الأدباء والشعراء والساسة للإفراج عنه – كما فعل فلاسفة فرنسا وأدباؤها وتظاهروا من أجل

الإفراج عن الأديب جان جينيه الذي هو رجل مريض، وهو مصرٌّ على أن يعيش من السرقة. حاولوا معه، لكنهم فشلوا فقد قرر أن يعيش لصًّا ويلقى الجزاء الذي يستحقه. وكان الفيلسوف الوجودي جون بول سارتر قد تقدم ليدافع عن حرية الأديب في أن يعيش كما يريد!

قابلت الشاعر الإيطالي السجان السجين، وروى لي حكايته، وأسعدني أن أجلس إليه وأشرب معه، وأدفع الثمن والبقشيش الذي يطلبه ليشكرني في النهاية. هل هو ساخط على كل شيء؟

الجواب: نعم.. هل كانت المرأة هي السبب؟ الجواب نعم. هل هي زوجته؟ الجواب: نعم. هل هي المرأة الوحيدة في حياته؟ الجواب: لا. فقد عرف كثيرات وهرب.

وفي كل ليلة يشير إلى أن الوقت حان ويقول: ساعدني، فأجمع معه المقاعد وأواني الزهور وندفعها معًا إلى الكافتيريا ويغلق بابها ويصعد الدرج إلى باب السجن، ويمد يده من الداخل ليحكم سلاسل السجن ويغلق النافذة في تمام الثامنة مساء ليقول: تصبح على خير!

معلهش الله يسامحك

خطر لي مرة أن أجد تفسيرًا لكلمة يرددها الإخوة السعوديون ألف مرة في اليوم، مجرد محاولة، اجتهاد، أما الكلمة فهي: سم.. إذا ناديت أحدًا يقول بسرعة: سم.. ولم أشأ أن أسأل أحدًا عن المعنى وإنما قلت لنفسي: حاول.

وحاولت، وقلت ربما كان معناها أن المتحدث يريد أن يقول لك: سم فعل أمر. أي ما اسم الشيء الذي تريده، عليك أن تسميه وأنا آتي به أو أنفذه لك، وقلت إنهم في اللغة الإنجليزية يقولون: .Name it وبس، هل أنا ادعيت أنني لا قبلي ولا بعدي؟ هل قلت إنني قررت أن هذا هو المعنى يجب أن يلتزم أي إنسان إذا سئل، هل قلت إنني نقلت هذا المعنى عن أحد المفسرين الكبار؟ لم أقل، وإنما قلت لعله أن يكون هذا هو المقصود، انتهى!

ومضت أيام وإذا بأحد الكتاب في مجلة سعودية يتهمني بالقنزحة والحذلقة والهجص!

ومثل هذه العبارات ما دخلك أنت في الذي يقوله السعوديون؟ وما الذي تعرفه عن اللهجة العامية والكلمات النبطية؟ وقال خير لي أن أسكت، وأن أضع لساني تحت أسناني وأسكت!

ووجدت مقالاً آخر يقول إن كلمة (سم) هي اختصار بسم الله الرحمن الرحيم – يجوز!

ومنذ أيام وجدت نفس الكاتب يتعرض لبعض الكلمات العامية في اللهجة المصرية ويقول: إن كلمات: مافيس.. مفيش.. معناها ما في شيء.. وكلمة معلهش.. أي ما عليه شيء.. وكلمة أيش: أي شيء.. إلخ. وكلها معروفة الأصل ولكن كتبها كأنه كولمبوس وقد اكتشف أرضًا جديدة بعد رحلة طويلة في المحيط، أو كأنه أرشميدس عندما قال: أويركيا – أي وجدته.

ولم أشأ أن أرد عليه وأقول: من أنت حتى تجلس على مقعد الإفتاء في لهجة لا تعرفها، وأخذت بنصيحته ووضعت لساني تحت وفوق أسناني!

وتذكرت أن الزميل الفاضل قد هاجمني قبل ذلك، فعندما ذهبت إلى جدة لأول مرة وجدت لافتات كثيرة تقول: فقيه للدواجن! وكل ما خطر لي هو أن (فقيه الدواجن) يعني الطبيب البيطري الخاص بالطيور، وأدهشني أن تكون الدواجن في حاجة إلى أطباء بهذا العدد، لأن اللافتات الخاصة بهذا الفقيه كثيرة.

ثم عرفت وأصبح هذا الفقيه صديقي هو وأخوه، د. سليمان فقيه صاحب المستشفى العالمي.

.. وكل الطيبات بنات!

لأسباب غير واضحة مسح التلفزيون المصري كثيرًا من التسجيلات التاريخية. مسحوها ليسجلوا عليها خطب الرئيس عبد الناصر. ومن الأشرطة التي مسحوها: أول حلقة في برنامج كنت أقدمه للتلفزيون اسمه «نجمك المفضل». وكانت الحلقة الأولى مع أستاذنا طه حسين، وكنا عشرة نناقشه: نجيب محفوظ ويوسف السباعي وثروت أباظة وأمين يوسف غراب وعبد الرحمن صدقي وعبد الرحمن الشرقاوي وكامل زهيري وأنا.. ولكن حصلت على نسخة من صديق سعودي وأهديتها للتلفزيون. كما مسحوا تسجيلاً مع توفيق الحكيم وبقي تسجيل مع العقاد. ومسحوا تسجيلاً مع د. حسين فوزي ود. لويس عوض والشاعر عزيز أباظة.

وكلها وثائق تاريخية بديعة، فلأول مرة يرى المشاهدون هؤلاء الكبار ويسمعون منهم.

أما الذي أوجعني أنهم مسحوا تسجيلاً مع المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي قبل وفاته بأيام، وهي المرة الأولى التي نرى فيها عبد الرحمن الرافعي الطيب الهادئ الصافي النقي، والذي ينفعل

قليلاً عندما يتحدث عن دوره في التاريخ والثورة الوطنية، وعن حبه لمصطفى باشا كامل وكفاحه.

وإذا أنت رأيت عبد الرحمن الرافعي أو جلست إليه، فسوف تحس أنه والدك أو تتمنى ذلك. سألته: قل لنا يا أستاذنا هل كانت في حياتك قصة حب؟ فأجاب: نعم. فالحب غريزة إنسانية، ومن أشرف الغرائز.

سؤال: يعني هل كانت لك قصة حب مع زوجتك قبل الزواج؟ فاعتدل مستنكرًا وقال: لا، إنها من عائلة كريمة، وأنا لم أعرفها، وإنما أحببتها بعد الزواج، فالحب يجيء بعد الزواج.

وكانت له ثلاث من البنات وليس له أولاد ذكور، وقد أدهشتني هذه النظرية الساذجة الطيبة، ورأيت أنها مفتاح شخصية عبد الرحمن الرافعي، وأنه ابتداء من هذه اللحظة يجب أن نفسر كل مواقفه أخلاقيًّا، فمدرسة عبد الرحمن الرافعي هي التفسير الأخلاقي للتاريخ، فهو يكره اللصوص و«الكدابين» - أي أنه يكره السياسة كلها لأنها تكذب وتخون وتخدع - فهو إذن ليس مؤرخًا موضوعيًّا.

ويكفي أنني عندما اندهشت لرأيه في المرأة والزواج، قال بملء فمه وسعادته الغامرة، إن هذا أيضًا رأي أمير الشعراء شوقي الذي قال: «وكل الطيبات بنات!».

الفهرس

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ
أنيس منصور

(أ) ترجمة ذاتية:

1 – في صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
2 – عاشوا في حياتي.
3 – إلا قليلاً.
4 – طلع البدر علينا.
5 – البقية في حياتي.
6 – نحن أولاد الغجر.
7 – من نفسي.
8 – حتى أنت يا أنا.
9 – أضواء وضوضاء.
10– كل شيء نسبي.
11– لأول مرة.
12– شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

13– الحائط والدموع.
14– وجع في قلب إسرائيل.
15– الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل).
16– عبد الناصر – المفترى عليه والمفتري علينا.
17– في السياسة (3 أجزاء).
18– الدين والديناميت.
19– لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
20– السيدة الأولى.
21– التاريخ أنياب وأظافر.
22– الخالدون مائة – أعظمهم محمد (ﷺ).
23– على رقاب العباد.
24– ديانات أخرى.
25– وكانت الصحة هي الثمن.
26– الغرباء.
27– الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

28– عزيزي فلان.
29– هي وغيرها.
30– بقايا كل شيء.
31– يا من كنت حبيبي.
32– قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسري فريدريش ديرنمات:
33– رومولوس العظيم.
34– زيارة السيدة العجوز.
35– زواج السيد مسيسبي.
36– الشهاب.
37– هي وعشاقها.
** للأديب السويسري ماكس فريش:
38– أمير الأراضي البور.
39– مشعلو النيران.
** للأديب الفرنسي جان جيرودو:
40– من أجل سواد عينيها.
** للأديب الأمريكي آرثر ميللر:

41- بعد السقوط.

** للأديب الأمريكي تنسي وليامز:

42- فوق الكهف.

** للأديب الأمريكي يوجين أونيل:

43- الإمبراطور جونس.

** للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:

44- تعب كلها الحياة.

** للأديب الفرنسي أداموف:

45- الباب والشباك.

** للأديب الإسباني أرابال:

46- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

47- الحنان أقوى.

48- من أول نظرة.

49- طريق العذاب.

50- ألوان من الحب.

51- شباب.. شباب.

52- مذكرات شاب غاضب.

53- مذكرات شابة غاضبة.

54- جسمك لا يكذب.

55- الذين هاجروا.

56- غرباء في كل عصر.

57- أظافرها الطويلة.

58- هموم هذا الزمان.

59- زمن الهموم الكبيرة.

60- الحب الذي بيننا.

61- عذاب كل يوم.

62- كيمياء الفضيحة.

63- كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:

64- الذين هبطوا من السماء.

65- الذين عادوا إلى السماء.

66- القوى الخفية.

67- أرواح وأشباح.

68- لعنة الفراعنة.

69- دقات الصحة هي الثمن.

(ز) نقد أدبي:

70- يسقط الحائط الرابع.

71- وداعًا أيها الملل.

72- كرسي على الشمال.

73- ساعات بلا عقارب.

74- مع الآخرين.

75- شيء من الفكر.

76- لو كنت أيوب.

77- يعيش.. يعيش.

78- الوجودية.

79- طريق العذاب.

80- وحدي.. مع الآخرين.

81- ما لا تعلمون.

82- لحظات مسروقة.

83- كتَاب عن كتب.

84- أنتم الناس أيها الشعراء.

85- أيها الموت.. لحظة من فضلك.

86- أوراق على شجر.

87- في تلك السنة.

88- دراسات في الأدب الأمريكي.

89- دراسات في الأدب الألماني.

90- دراسات في الأدب الإيطالي.

91- فلاسفة وجوديون.

92- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

93- حول العالم في 200 يوم.

94- بلاد الله خلق الله.

95- غريب في بلاد غريبة.

96– اليمن ذلك المجهول.
97– أنت في اليابان وبلاد أخرى.
98– أطيب تحياتي من موسكو.
99– أعجب الرحلات في التاريخ.
100– ماذا يريد الشباب؟
101– الرصاص لا يقتل العصافير.

(ط) مسرحيات كوميدية:

102– مدرسة الحب.
103– حلمك يا شيخ علام.
104– مين قتل مين؟
105– جمعية كل واشكر.
106– الأحياء المجاورة.
107– سلطان زمانه.
108– العبقري.
109– كلام لك يا جارة.
110– فوق الركبة.
111– هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
112– يوم بيوم.
113– إنها الأشياء الصغيرة.
114– إلا فاطمة.
115– القلب أبدًا يدق.

(ي) المسلسلات التليفزيونية:

116– حقنة بينج.
117– اتنين.. اتنين.
118– عريس فاطمة.
119– من الذي لا يحب فاطمة؟
120– غاضبون وغاضبات.
121– هي وغيرها.
122– هي وعشاقها.
123– العبقري.
124– القلب أبدًا يدق.
125– يعود الماضي يعود.

(ك) كتب (مقالات):

126– ثم ضاع الطريق.
127– النجوم تولد وتموت.
128– هناك أمل.
129– أحب وأكره.
130– الحيوانات ألطف كثيرًا.
131– مصباح لكل إنسان.
132– أتمنى لك.
133– لعل الموت ينسانا.
134– اقرأ أي شيء.
135– ولكني أتأمل.
136– حتى تعرف نفسك.
137– الحب والفلوس والموت.. وأنا.
138– نحن كذلك !!
139– اللهم إني سائح.
140– كائنات فوق.
141– تعال نفكر معًا.
142– آه لو رأيت !
143– النار على الحدود: لعبة كل العصور.
144– انتهى زمن الفرص الضائعة !
145– هناك فرق.
146– الرئيس قال لي.. وقلت أيضًا – الجزءان الأول والثاني.
147– يا نور النبي.
148– وأنت ما رأيك؟
149– حضارة الإوز والبقر.
150– حلمنا الجميل.
151– ضاع الجيل ضاع.
152– قالوا (الجزءان الأول والثاني).
153– وآخرتها.
154– من أول السطر.

155- أظافرها الطويلة.
156- القلب لا يمتلئ بالذهب.
157- تكلم حتى أراك.
158- الذي خرج ولم يعد.
159- ليلة في بطن الحوت.
160- والله زمان يا حب.
161- أجيال من بعدنا.
162- قلبك يوجعني.

(ل) الترجمات القصصية:

163- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس.
164- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
165- (لو كنت مكاني) للأديب السويسري ماكس فريش.
166- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا.
167- (الجلد) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته.
168- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكي جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

169- الفلسفة الوجودية الألمانية ـ لإميل تسلر.
170- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.
171- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.
172- مسرح العبث الفرنسي - لإتيان ماريبو.
173- الفيلسوف الروسي بردياثف - لفيكتور لوزتسيف.
174- من كيركجور إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.
175- سيمون دبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.
176- رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.
177- فاشلون لكن نبلاء - لجان ماري روار.
178- ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر.
179- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.
180- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألماني مارتن هيدجر - لآدم برجشتاين.
181- كروتشه فيلسوف الحرية - لإيرابيلا دلورنتس.

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع